ادِّعاءات التفسير العرقي للتاريخ بين الواقع العلمي والخيال الفلسفي

ادِّعاءات جوستاف لوبون انموذجًا

م.د. سلمان محمد خضر* و م.د.كاوه عزيز إبرايم*

تأريخ التقديم: ٢٠١٨/١/٩ تأريخ القبول: ٢٠١٨/١/٢٤

المقدمة:

تعدّ مدرسة التفسير العرقي للتاريخ واحدة من المدارس الفلسفية الكبرى التي كانت ذي مؤثرات سلبية اتسمت بالخطورة خلال الفترة الحديثة من تاريخ البشرية، لاسيما منذ منتصف القرن التاسع، اذ ظهر العديد من الفلاسفة والمفكرين في اوربا، الذين حاولوا خلال شروحاتهم الفكرية تلك تبيان ماهية هذه المدرسة من العلمية والفلسفية، من خلال التفسيرات والتحليلات لكيفية سير العجلة التاريخية عند المجتمعات الانسانية منذ القدم وحتى العصر الحديث، لاسيما من خلال الاعتماد على ماهية مفهوم العرق واهميتها ، كونها كان الاساس في قيام الحضارات الانسانية على مر الازمان والفترات التاريخية المختلفة والتي استطاعت فيها الامم الراقية من الناحية العرقية بمعزل عن الامم والشعوب المتدنية عرقياً من تكوين وانشاء البنية والمقدرات الحضارية للبشرية جمعا.

اذ كان الفيلسوف والمفكر الفرنسي جوستاف لوبون واحداً من هولاء المفكرين العنصريين الذين اكدوا على احقية وعلمية هذه المدرسة الفلسفية لتفسير التاريخ، لاسيما من خلال طروحاته وارائه الفكرية التي بنيت بالاعتماد على بعض الادلة والشواهد التاريخية التي كان يعتقد ويؤمن بها، وبالاخص الاسس والمبادئ الجوهرية لهذه المدرسة، والتي تضمنت وشملت مفاهيم مختلفة منها ماهية العرق التي كانت تمتلك المؤثرات الكبيرة في تكوين روح الشعوب الاصيلة، اذ حاولت بشتى الطرق والاساليب اثبات انه هنالك تباين واختلاف واضح من الناحية العرقية مابين الشعوب على اساس ان هنالك شعوب متفوقة عرقياً من ناحية الدم ونقاوته وشعوب ومجتمعات اخرى متدنية على

* قسم التاريخ/كلية الآداب/ جامعة سوران .
* قسم التاريخ/كلية الآداب/ جامعة سوران .

اساس أن دمهم وعرقهم بالاصل يتميز بهذا التدني الوجودي، وهذا ما جعلت البشرية تتميز بوجود مجتمعات متفاوته من حيث درجات التطور والتقدم الحضاري، اذ اظهرت الادلة والشواهد التاريخية على حقيقة وجود الامم الراقية العليا الى جانب الامم المتدنية السفلى وفق مبدء اصالة العرق والدماء، لان المراحل التاريخية كانت الكفيلة بظهور تلك الامم المختلفة الى حيز الوجود بعدما منحت طبيعة العرق ماهيتها واصلها وقوتها الحضارية لهذا الوجود.

اقتضت طبعية الموضوع تقسيم البحث الى ثلاثة مباحث اساسية، تضمن المبحث الاول ماهية روح وعرق الشعوب، اما المبحث الثاني فتم الاشارة الى الطبقات النفسية للاَمم والشعوب، المبحث الثالث تم التطرق منه الى ماهية تكوين الامم التاريخية. وفي الختام نتمنى ان قد توصلنا إلى بيان بعض الحقائق العلمية لهذه المدرسة الفلسفية لتفسير التاريخ التي طالما حاول فلاسفته الاعتماد على بعض الادلة و الشواهد التي قد يتوافق مع شروحاتهم الفكرية بمعزل عن الشواهد الكلية للتاريخ، او بمعنى اخر الاخذ بالادلة والشواهد الجزئية وفرضها على العموميات التاريخية.

المبحث الاول:- ماهية روح وعرق الشعوب.

يؤكد جوستاف لوبون([1]) على ان الفلاسفة والعلماء المختصين بالنظريات الطبيعية حول اصل الانسان،يشيرون الى ان الكينونة البشرية في جوهرها واساسها منقسمة ومختلفة الى انواع متعدده ومتباينة، لاسيما عند الاخذ بمبدء الصفات والخواص التي تظهر عند الانسان بتأثير مفهوم العرق والنسل، والمعروف و المتداول ان ماهية مفهوم النسل بالاساس معرضة للتغير والتحول التاريخي، لاسيما ان تلك التحولات انما تكون بصورة لايمكن لنا ان نشعر بها، الا ان لوبون يرفض هذه الرؤية المعرفية التي بنيت وفق اسس غير علمية، بل ان التصور العلمي الحقيقي لهذه المسئلة انما يكمن ان اصل

(١) غوستاف لوبون (٧ مايو ١٨٤١- ١٣ ديسمبر ١٩٣١) هو طبيب ومؤرخ فرنسي عمل في اوربا واسيا وشمال افريقيا، كتب في الاثار وعلم الانثروبولوجيا، وعني بالحضارة الشرقية، من اشهر اثارة في كتب الحضارة تمثل في حضارة العرب وحضارة الهند والحضارة المصرية، للتفاصيل اكثر ينظر: http\\www.abjjad.com. author

وماهية الاعراق مختلفة الانواع لايمكن باي حال من الاحوال ان تتأثر بتلك التغيرات والتحولات، اذ تعطينا الادلة و الشواهد التاريخية الكثير من الادلة الحيوية على صدق ذلك الموضوع، هذا مع الاخذ بعين الاعتبار ان التطورات التاريخية المعنية بهذا المسألة انما تتسم بالقصر الزماني(١).

على هذا الاساس اكدت العلوم العصرية من خلال النظريات والافكار الفلسفية المختصة بطبيعة الكينونة الانسانية ووجوده على حقيقة الاختلاف والتباين مابين المجتمعات البشرية، لاسيما ان ماهية المحتوى الجوهري لذاتية الانسان تبين ذلك الامر بشكل واضح وجلي، اذ لايمكن انكار الفروق والاختلافات الاساسية ما بين افراد الامم والشعوب في هذا الوجود، على وجه الخصوص الصفات الجسمانية التي تثبت ذلك الاختلاف والتباين بصورة قطعية، هذا فضلاً عن لون البشرة وكذلك اشكال الجماجم وماهية احجامها، والتي يرفضها الكثير من علماء الدين المعروفين بالتزمت وعدم الانفتاح الفكري الذين يرون في ان اصل المسألة تكمن في ارجاعها الى ضرورة الاخذ بمفهوم تعدد وتنوع الشعوب و القبائل البشرية ليس الا،الا ان لوبون يعتقد او يؤمن ان ذلك غير صحيح وغيرعلمي، لاسيما اذا ما اخذنا بنظر الاعتبار انه كيف يمكن لنا القبول بأن كلاً من الجنس اوالعرق الزنجي والقوقازي هما من فصيلة وسلالة عرقية واحدة، وهذا مايرفضه علماء الاجناس الذين يؤكدون على ان هذه الرؤية متميزة بكونها غير علمية تفتقد الى الدقة والموضوعية، اذ لايمكن القبول بأن يكون هذان العنصران من عائلة بشرية واحد ترجع في نسبهما الى نفس الابوين، ثم افترقا عن بعضهما البعض بمرورالعصور والازمان(٢).

يبدو ان علماء الطبيعة الذين تحدث عنهم لوبون في اثبات فرضتيه، لم يكونوا في مستوى علمي متميز وشامل، حتى انهم لو يبلغوا المستوى الثقافي والفكري لفلاسفة الاغريق الذين رفضوا ماهية المفهوم العرقي والعنصري لتفسير السلوك والقيم الانسانية

(١) جوستاف لوبون، سر تقدم الامم،ت: احمد فتحي زغلول، دار المعارف للنشر والتوزيع، القاهرة– مصر، ط١ ٢٠٠٩، ص١٥

(٢) جوستاف لوبون، سرتقدم الامم، ص١٥–١٦

على وجه العموم، بعكس فلاسفة القرن التاسع عشر ومابعده الذين اكدوا على اهمية وعلمية الاخذ بمبدء التصور السلالي والعرقي في تفسير الكثير من السلوكيات البشرية دفعة واحدة، دون الاخذ بالكثير من الدراسات التاريخية الاخرى، اذ يظهر من خلال مؤلفاتهم انهم كانوا متأثرين ببعض الافكار والمبادئ والعقائد الدينية، لاسيما اليهودية التي اكدت على ان البشرية ترجع في اصلها الى ثلاثة افراد الذين كان لهم الفضل في ان ينحدر كل شعب او قوم في نسله من هولاء،وبالتالي ظهر مفهوم او مصطلع السلالة فيما بعد ذلك، اذ اصبح الاساس الذي يعرف به الكثير من الشعوب والامم، كما كان الحال مع السلالة الفرنسية او اللاتينية اوالارية اواليهودية او غيرها من السلالات البشرية، وهذا ما عقدّ الامور اكثر عندما اختلط هذا المفهوم مابين حقيقة العرق او الدين اواللغة اوالقومية([1]).لاسيما اذا ما اخذنا بنظر الاعتبار مفهوم الثقافة النسبية التى تؤكد عليها الدراسات الانثروبولوجية والتي تعني ضرورة الاخذ بمبدء حقيقة وجود الاختلاف الحضاري بين الشعوب على اساس الاحترام المتبادل ، لانه بدراسة ذلك الاختلاف وتلك التباين يمكن لنا الوصول الى تحقيق الهدف المنشود التي تتلخص في المعرفة العلمية لماهية ذلك من خلال التعرف على الاسباب والمرتكزات الاساسية التي ادت الى ظهور تلك الاختلافات، وهذا ما جعل معرفة اصل وطبيعة الامم والشعوب من الناحية العلمية امراً ميسوراً بشكل افضل واكثر دقة([2]).

اذ انه من المتعارف عليه ان الانسان من حيث الوجود متميز بالقصر الزماني، بمعنى اخر انه لو اخذنا حياة الانسان من المراحل البدائية التي عاش فيها مروراً بالتطورات التي شهدها وصولاً الى العصر الحديث، لوجدنا في حقيقية الامر ان حياتهم قصيرة جداً حتى يمكن القول انه لايتجاوز عمر طفل صغير لم ينهي مرحلة طفولته

(١) محمد السيد غلاب، تطور الجنس البشري، الدار المصرية للطباعة،الاسكندرية– مصر،ط٢ ١٩٨٥، ص١٤٧–١٤٨

(٢) حسين فهيم، قصة الانثروبولوجيا، عالم المعرفة، العدد(٩٨)، لسنة ١٩٨٦، الكويت، ص١٢٧

الباكرة التي تكاد تكون بضعة شهور لا اكثر(١).هذا ما أكدّ عليه لوبون نفسه، ومع ذلك يبين على انه هنالك فروق جوهرية ما بين افراد الامم البشرية على اساس العرق، وهي المعضلة بعينه اذ لايوجد احد في هذا الكون ينكر ان لايكون هنالك اختلاف وتباين مابين الانسان، الا ان ذلك الاختلاف لم يكن مرده الى الوراثة و العرق والدم، انما كانت هنالك عوامل عديدة تظافرت وتعاملت مع بعضها البعض بمرور الازمان لتظهرتلك الاختلافات،مع الاخذ بتأثير العامل المكاني.

فيما يتعلق بنظر لوبون حول النظرة التقليدية لعلماء الاديان في ماهية اصل الانسان التي يرجعونها الى كينونة واحدة، كذلك الدراسات غير الدينية ، لاسيما الدراسات الفلسفية المختصة بطيعة الانسان التي يؤكد كذلك على انه ربما يرجع اصل الانسان الى مكون واحد، على اعتبار انه قد ولد من نسل ونسب واحدة لا اكثر، اذ اثبتت الادلة والتجارب ان الانسان بعدما تكون له ماهية التفكيراصبح ذو قدرة لها القابلية في العيش، وبمرور الزمن تكاثروا فيما بينهم، بحيث كان لكل واحد منهم طريقة واسلوب معين للعيش والحياة في هذا الوجود، والتي جعلت في مجملها اناس مختلفي الانساب والانسال(٢).وهذا مايؤكد عليه المفهوم الديني كذلك، اذ ان الاختلاف والتمايزما بين الشعوب والامم مردّها الى الاسس الاجتماعية التي قامت عليها بنية المفاهيم الاجتماعية لهم، وليس وفق مفهوم القوى والمؤثرات العرقية او الروحية، لاسيما عند الاخذ بمبدء ضرورة التعارف والتقارب بين البشرالتي لايمكن تجاهلها وتجاوزها عند دراسة ماهية الانسان(٣).

ثم يؤكد لوبون على مفاهيم جديدة لم يسبق ان اكد عليها فلاسفة التفسير العرقي للتاريخ، اذ يرفض ان يأخذ بمبدء التمايز البشري وفق الهيئة و الصورة الجسمانية للانسان، اذ هي غير صالحة من الناحية العلمية ان تبنى عليها نظرية عرقية، لانه يعتقد ويؤمن ان تلك الصفات لايمكن ان نحس ونشعر بها الا عند الامم المتدنية حضارياً كما

(١) ت.ا.م.جود، قصة الحضارة، ت: محمد بدران، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة– مصر، د.ت، ص١٥

(٢) فرانكلين–ل– باومر، الفكر الاوربي الحديث، ج٣،ت: احمد حمدي محمود، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة– مصر، ط١ ١٩٨٩،ص١٠٦

(٣) عدنان محمد زرزور، القومية والعلمانية، مؤسسة الرسالة، بيروت– لبنان، ط١ ١٩٩٢، ص٤٨–٤٩

هو الحال مع الزنوج والهنود الحمر، بينما الامر غير واضح عند الامم الراقية التي تتميز بكونها امم مشابه خلقياً وجسمانياً، الا انها مختلفة من حيث قوة وقدرة المشاعر كما هو الحال مع الانكليزي والاسباني والعربي، اذ يمكن ملاحظة تلك الفروق الروحية من حيث المشاعر عند النظر والتمعن لمسيرة المراحل التاريخية لهذه الشعوب، كذلك يرفض لوبون ان يبني نظرية التفسير العرقي للتاريخ على اساس المبادئ والقيم الاخرى من الدين واللغة والمنظومة السياسية الواحدة، اذ ان ذلك اثبتت فشلها وبيّن خطأها وفق الاسس العلمية المتينة، ومع هذا الفشل في تلك التصورات التي استندت عليها النظريات العرقية فيما مضى، الا انه يشير الى مقومات جديدة تؤكد وتبين الحقيقية العلمية لهذه المدرسة، لاسيما عند الاستعانة بمفاهيم علم النفس الحديث بغية الوصول الى اسس علمية رصينة تؤكد على وجود الاختلافات الروحية والادبية والعقلية التي تكون متابينة من شعب الى اخر، حيث يؤثر فيهم خلال مسيرة حياتهم التي تمتاز بكونها متطورومتحول تساهم في ايجاد الكثير من المفاهيم والمرتكزات الاساسية للمنظومة الاجتماعية والسياسية والدينية، وبصورة يمكن القول ان تلك الصفات الادبية والعقلية هي المسؤولة عن تكوين الروح الحقيقي للشعوب(١).

ان وجود هذه الانواع من الصفات عند الشعوب والاقوام، ما هي في حقيقة الامر الا نوع من الافتراض التي تتميز بها سجايا القوة الروحية لتلك الشعوب، لاسيما ان تلك الصفات تمتاز بكونها فطرية خارجة عن قدرة الاكتساب، الا ان ماهية علم النفس الحديث، لاسيما الحقل المرتبط بالمفهوم والبنية الاجتماعية للانسان، لايزال في اطوارها الاولى من الناحية العلمية، حيث لم يتجاوز بعد الاسس البدائية للعلوم الانسانية، وخاصة المرتبطة بماهية الجنس البشري والمرتكزات المرتبطة به(٢)، اذ انه من المتعارف عليه من الناحية العلمية ان طبيعة السلوك البشري تتميز اصلاً بنوع من التعقيد والتشابك، لايمكن لاي باحث التعمق في دراسته مهما كان مستواه العلمي والثقافي عالياً وذو قدرة

(١) جوستاف لوبون، سر تقدم الامم، ص١٦

(٢) ارنولد جوزيف توينبي، مختصر دراسة التاريخ، ت: محمد فؤاد شبل، المركز القومي للترجمة، القاهرة– مصر، ط١ ٢٠١١،ص٨٧

شاملة، اذ لم يظهر لحد الان اية نظرية لها القدرة والامكانية العلمية الصحيحه تمنح الانسانية مفاهيم صادقة يمكن الاخذ بها عند النظر في ماهية الاختلافات والفروق مابين افراد الامم والشعوب الموجودة في الحياة على وجه المعمورة(١)، اذ هنالك مايسمى بمفهوم التزاوج مابين الشعوب المختلفة تلك، والتي تدحض هذه الفروقات على اساس كونها فروق في ظاهر الامر وكأنها سلوكيات طارئة لايغير من جوهر المسألة في شئ(٢)

اذ أن هنالك الكثير من النظريات العنصرية التي بنيت على اسس فارغة من الناحية العلمية يمكن ان نطلق عليها افكار تتميز بالهراء الفكري، والتي تنبع من خلال الكينونة الانسانية نفسها والتي تتميز بوجود العديد من الصفات التي تتحتم عليها ضرورة التقارب فيما بين الشعوب والامم، اذ لايمكن القول انه باستطاعة اي فرد العيش بمعزل عن الاخرين(٣)، وكذلك رغم الاخطاء السابقة التي بيّن عليه المفاهيم الاساسية للنظرية العنصرية، فأن الدراسات الحديثة كذلك ترفض ان يكون هنالك اية ربط مابين السلوك الانساني وحركته في الحياة ومابين ماهية اللون والبشرة وشكل الوجه وغيرها من الصفات الظاهرية للانسان، هذا مع الاخذ بعين الاعتبار ان تلك المفاهيم قد وجدت خلال العصر الحديث فقط،لاسيما عند المجتمعات الاوربية(٤)، والتي تميزت بنوع من التعقيد والالتباس اصلاً، اذ ان ذلك كان نابعاً من الخلط مابين المفهوم العرقي وفق الاسس البيولوجية من ناحية، ومابين المفهوم القومي ذو الصبغة الثقافية من جهة اخرى، اذ كان الاول مبنياً على اساس بيولوجي بينما كانت الثانية مبينة على اساس الاكتساب العلمي، اذ كان بعض الصفات الانسانية انما تتوقف على مبدء الاكتساب كما هي اللغة، اذ لو كانت اللغة الاساس في اثبات المفهوم العنصري، فماذا يقال عن الزنوج الذين يجيدون اللغة

(١) قاسم حسين صالح، الانسان من هو، منشورات وزراة الثقافة والاعلام، بغداد– العراق، ط١ ١٩٨٤، ص١٢

(٢) وليم بويد، اسحاق ازيموف، الاجناس والشعوب، ت: ابراهيم عبود، دار اليقضة العربية للتاليف والترجمة والنشر، دمشق– سوريا، ط١ ١٩٦٠، ص١٣

(٣) هارى ديونار اوفرستريت، العقل المنطلق، ت: عبدالحميد ياسين، دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت– لبنان، ط١ ١٩٦٠، ص٢٢٣–٢٢٤

(٤) بيترفارب، بنو الانسان، ت: زهير الكرمي، عالم المعرفة، العدد(٦٧) لسنة ١٩٩٣، الكويت، ص١٦٩

الانكليزية وبطلاقة، هل هم من الامم الراقية او غير ذلك، لاسيما عندما يصنفهم فلاسفة المدرسة على اساس انهم شعوب متدنية عرقياً(١)،لاسيما ان لوبون نفسه يعترف ان المزاج والقدرات العقلية ثابتة بمقدار ثبوت الخواص والبنية الجسمانية للانسان، نظراً لكون ان هنالك نوع من الارتباط والتأثير المتبادل النسبي مابين المقدرات العقلية ومابين ماهية طبيعة المخ البشري، الا ان العلم الحديث المرتبط بهذا الموضوع لم يبلغ الدرجة التي يمكن له معرفة حقيقة ذلك الامر بشكل دقيق(٢).

رغم ان لوبون في ما سبق اكد على انه كان هنالك اسس علمية متينة لاثبات صدق نظريته من خلال الاستعانة بمفاهيم علم النفس الحديث، لكنه في الوقت نفسه يشير الى ان العلم الحديث لم يبلغ بعد المقدرة العلمية الكافية لكي يتم دراسة ماهية الانسان والمؤثرات التي تؤثر في سيره وحركته الحضارية لاسيما فيما يخص طبيعة المخ وعلاقته بطبيعة السلوك والمقدرات العقلية لها، والتي تساهم نوعاً ما في تعريف حقيقية الانسان وصدقه او خطائه ووجود الاختلاف والفروق فيما بينها.

ثم ياتي لوبون الى ذكر المؤثرات الاساسية في سير الحركة الانسانية خلال وجودها في الحياة والتاريخ، التي يمكن معرفتها على ثلاثة انماط رئيسية، يكمن الاول وهي الاكثر تاثيراً واقواها في ادارة سير تلك العجلة والمتمثلة بدماء الاجداد، اما المؤثر الثاني فتتلخص في ماهية اثر تربية الوالدين، والثالث هو تأثير مفهوم العامل البيئي والجغرافي الذي يعتبره الكثير من الفلاسفة والمفكرين المختصين بسير التاريخ انه الاقوى والاكثر اثراً من العوامل الاخرى، الا ان لوبون له رأي اخر يختلف عنهم، اذ يشير الى ان تأثير البيئة ضعيف وبدرجة كبيرة مقارنة مع التأثيرين الاول والثاني، لاسيما ان مفهوم البيئة وما يحويه من مرتكزات انما يكون ذو تأثير سطحي مبسط لا يصل الى المبادئ والاسس الرئيسة للانسان منها التربية التي لاتتأثر بها، هذا مع الاخذ بعين الاعتبار ان تأثيرها في الانسان يظهر اذ استمر لأزمان وفترات طويلة جداً وعلى اجيال عديده(٣)، لأن مفهوم

(١) محمد عبدالمنعم نور، اسس الاجتماع الانساني، دار المعرفة، القاهرة– مصر، ط١ ١٩٦٠، ص٢٢
(٢) جوستاف لوبون، سر تقدم الامم، ص١٦–١٧
(٣) جوستاف لوبون، سر تقدم الامم، ص١٨

البيئة مؤثر ويمكن الاخذ به عند بنية القيم الاجتماعية وفق تقلبات الزمن والتاريخ، الا انه يتميز بالضعف في كونه مؤقت وغير مستمر على الدوام لاسيما اذا كانت هذه التاثيرات مخالفة اومعاكسة لتاثير مفهوم العرق المتمثل في سلسلة القوة الروحية ودماء الاجداد(١).

هذه النظرية التي بنيت على اساس كون المفهوم البيئي ضعيف مقارنة بالمؤثرات الاخرى في حقيقة الامر مفهوم ورؤية تقليدية قد تبناه الكثير من الفلاسفة، على اعتبار ان ماهية الطبيعة الانسانية تبقى على حالها دون تغير مهما تغيرت العصور والازمان، بل ان الاصح ان العامل الوراثي هو في حقيقة الامر لايعبر عن اية جهد او نشاط انساني، لاسيما ان تلك الجهود التي تبذل هي الاساس في الاحداث والتغيرات التي تصاحبها في البنى والقاعدة الاساسية للانسان(٢)،لاسيما ان الدراسات العلمية تؤكد على ان الحضارات والمجتمعات الحضارية انما وجدت بفعل وتأثير قوي من البيئة الجغرافية الى جانب تأثير المفهوم الوراثي للأنسان في اَن واحد، اذ ان الضرورة والحتمية التي تفرضها ذاتية وجوهر طبيعة الانسان يجعله كائناً يحبذ الاختلاط فيما بينهم من خلال الانتقال والتحول من اماكن جغرافية معينة الى اماكن اخرى متباينة، وهذه الظاهرة عرفتها البشرية منذ العصور القديمة وحتى اليوم،وبالتالي قضت على مايسمى بمفهوم العرق الخالص اوالنقي اصلاً، والدليل يكمن في كون المجتمعات البشرية عبارة عن نوع من الخلط والامتزاج مابين الامم والشعوب المختلفة والمتباينة، التي تعني في نهاية الامر فناء مفهوم العرق والدم النقي وبتأثير البيئة الجغرافية، اذ هنالك الكثير من الصفات الانسانية انما تكونت بفعل وقوة المؤثرات البيئية كما هي الحال مع لون الجلد وكذلك قصر او طول القامة للانسان رغم ان هذه الصفة قد تكون وراثية، الا انها تخضع لتأثير البيئة من خلال الغذاء الجيد التي يتناولها الانسان في حياته، اذ يمكن القول ان المقارنة مابين ماهية الوراثة والعامل البيئي من المفاهيم الخاطئة اصلاً، نظراً للتداخل المتميز بنوع من

(١) غوستاف لوبون، روح الجماعات، ت: عادل زعيتر، دار المعارف، القاهرة– مصر، ط١ ١٩٥٠، ص٧٧

(٢) جون ديوي، الطبيعة البشرية والسلوك الانساني، ت: محمد لبيب، مؤسسة الخانجي، القاهرة– مصر، ط١ ١٩٦٣، ص١٣٠

التعقيد مابين المفهوميين في كينونة الانسان ذاته من الصعب التميز مابين تاثير احدهما على الاخر، لاسيما مع ظهور مجتمعات خارجة عن تأثير هذين المفهومين([1]).

ان التأثير المتبادل مابين الطبيعة البشرية الوراثية و مابين البيئة الجغرافية قد اسهما في تكوين العديد من الانجازات الانسانية، بعدما وفرت الظروف البيئة الارضية الصالحة لقيام تلك المقدرات الحضارية على وجه المعمورة([2])،ومهما قلنا عن هذا الموضوع لايمكن تجاوز تأثير البيئة المتمثل في اختلاف الاقاليم على تكوين الجنس البشري، قد يكون لتلك الاختلافات البيئية الاثر الكبير في تكوين ماهية طرازونوعية عيش المجتمعات، لاسيما عند الاخذ بمفهوم المناخ المتغير والمتحول وفق الفصول والمواسم المختلفة من الشتاء ذي البرودة القاسية اوالصيف المتميز بنوع من الحرارة القاسية التي تؤثر في بنية وماهية الانسان،لايمكن تجاهله باي حال من الاحوال([3])، التي يمكن ملاحظته في الكثير من الصفات الاساسية كما هي مع الذكاء والطاقة الابداعية للافراد التي تظهر بفعل عامل البيئة اكثر مما يظهر بفعل المفهوم الوراثي عند الانسان([4])، اذ ان تاثير المفهوم البيئي اكثر بكثير من تاثير العامل الوراثي كما يتصور اصحاب النظرية العنصرية لتفسير التاريخ، من امثال المفكر الفرنسي لوبون الذي يشير الى ان العامل البيئي هو الحلقة الاضعف في تلك المؤثرات([5]).

يستمر لوبون في طروحاته الفكرية تلك اذ يعتقد ان الامم التاريخية انما تكونت خارج مفهوم الزمان اذ ان المؤثرات الوراثية من الاحياء من البشر الذين لهم قوة رسم الحياة ،

(١) كريستين نصار، الانسان والتاريخ، جروس برس، طرابلس– لبنان، ط١ ١٩٩١، ص٣٣---٤١

(٢) ابان. ج. سيمونز، البيئة والانسان عبر العصور، ت: سيد محمد عثمان، عالم المعرفة، العدد ٢٢٢، لسنة ١٩٩٧، الكويت، ص١٥

(٣) جان جاك روسو، اصل التفاوت بين الناس، ت: عادل زعيتر، دار المعارف بمصر، القاهرة– مصر، مصر، ط١ ١٩٥٤، ص٨٦

(٤) دين كيث ساسمنتن، العبقرية والابداع والقيادة، ت: شاكر عبد الحميد، عالم المعرفة، العدد ١٧٦، لسنة ١٩٩٣، الكويت، ص٦٩

(٥) صائب عبد الحميد، فلسفة التاريخ في الفكر الاسلامي، دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت– لبنان، ط١ ٢٠٠٧، ص٩٠

انما هي من القوة والنشاط الروحي للاجداد ودمائهم واعراقهم، وبالتالي يمكن القول ان معرفة حقيقة الامم والشعوب انما تكمن في معرفة الماضي والمستقبل لهم، الا ان معرفة الماضي المتمثل في ماهية الاموات هي الاكثر ضرورية لكونها الاكثر تأثيراً، لاسيما في حركة الانسان وسلوكياته اللاتنبيهية كما يعتقد لوبون، نظراً لأنها تتحكم وتسيطر على ماهية بنية العقل والقيم الاخلاقية وكذلك المظاهر المتصلة بهذين المفهومين، من اللون وطبيعة الانسان وكذلك المشاعر والافكار، اذ يمكن القول بصورة اجمالية ان جميع المظاهر المادية والمعنوية انما ترجع الى تأثير قوة الاموات ودمائهم العرقية اكثر مما هو بتاثير الاحياء([1]).

قد يكون هذا النظرة صحيحة وعلمية عند دراسة الظواهر المادية بمعزل عن الكائن البشري،التي لاتخضع لمفهومي الزمان والمكان، نظراً لما يؤثر في تلك المسائل والمواد المادية من قوانين ومؤثرات طبيعية لايمكن ان تختلف عند توظيف مفهومي الزمان والمكان، غير ان ذلك الامر لايمكن الاخذ به عند دراسة الانسان من جوده وكينونته بشكل عام،اذ تخضع بصورة مباشرة للتحولات الزمانية والمكانية والتغيرات التي تصاحبها([2])، اذ لايمكن للانسان من حيث طبيعة وجوده ان يعيش على ضوء المفاهيم والمقدرات الماضية بأي شكل من الاشكال، بل ان المفهوم الحقيقي للماضي البشري يكمن في توظيفه من اجل ايجاد حاضر يضمن رفاهية وحيوية اكثر، لاسيما عند توظيف ذلك الماضي وفق المفهوم الحاضر الوجودي عند الانسان([3]).

المقصود هنا بالاموات هي المؤثرات الوراثية التي تركوها للابناء والاحفاد والتي بقيت مؤثرة وفعالة كما يعتقد لوبون واصحاب المدرسة العنصرية التي طالما نادت باهمية المؤثرات العرقية على الصفات المحتلفة للانسان فى منح الطاقة والقوة بهدف خلق حياة افضل لهم تكون اكثر رفاهية، الا ان ذلك غيردقيق من الناحية العلمية عند دراسة

(١) جوستاف لوبون، سر تقدم الامم، ص١٩

(٢) محمود محمد جاد، النظرية الاجتماعية (الاتجاهات والتيارات الكلاسيكية)، الانتشارالعربي، بيروت– لبنان، ط١ ٢٠١٢، ص٨٩–٩٠

(٣) ا. هـ. جونسون، فلسفة وايتهد في الحضارة، ت: عبدالرحمن ياغي، منشورات المكتبة العصرية، صيدا– بيروت، ط١ ١٩٦٥، ص١٧٨

المراحل والعصور التاريخية المختلفة للشعوب والمجتمعات الانسانية خلال التاريخ الطويل لهم، اذ لو كان ذلك حقيقياً لما ظهر مفهوم السقوط والانهيار للحضارات اصلاً بل لبقيت تلك الحضارات شامخة بفعل وقدرة الاموات كما يشير اليه لوبون في طروحاته، لاسيما ان التاريخ البشري شهد تقلبات حضارية عديدة و متنوعة وفق مبدئي الزمان والمكان لايمكن لاحد انكاره مهما ادعى صدق نظريته الفلسفية والعلمية.

ثم ياتي لوبون الى ذكر تأثير الوراثة على مفهوم التغير والتحول عند الانسان من خلال التغير في ماهية الصفات وكذلك التحول في المقدرات العقلية والادبية ، اذ يشير الى انه عند النظر والبحث في تاريخ الامم والشعوب يتبين حقيقية درجات الثبات في المزاج العقلي، لاسيما ان الكثير من الباحثين والدارسين يعتقدون ان الاساس عند المجتمعات الانسانية تكمن في التغيرات التي تشهدها روح الشعوب بخلاف بقاء تلك الامم على حالها وشعورها وبطريقة تتميز بالدوام والاستمرارية، نظراً لكون هولاء الباحثين يفتقدون الى قدرة علمية كبيرة ومؤثرة تعينهم على التامل في الكثير من تلك الدراسات للمجتمعات الانسانية، اذ يرون ان ماهية المفهوم الروحي من حيث الجوهر الذاتي للانسان قابلة للكثير من التحولات والتغيرات التي تكون مؤثرة في مجرى الاحداث التاريخية، لاسيما عند دراسة بنية الطبيعة السلوكية لهذه الشعوب والامم وفق مبدء تغير العصور والازمان المختلفة، اذ يرون ان الكثير من الصفات التى يمتاز بهاالشعب الانكليزي قد جرت عليها تحولات وتغيرات جوهرية خلال العصور القديمة والحديثة، والحال كذلك مع الشعب الايطالي التي شهد تحولات كبيرة عند الاخذ بمبدء تغير الزمان والتي يتمثل في العصور المختلفة لهذه الامة، الا ان لوبون يعتقد ان تلك التغيرات ماهي الا تغيرات مخادعة ظاهرية رافقت تلك الشعوب منذ قرون ليست بقليلة، اذ ان روح وجوهر الشعوب تبقى ثابتة والى الابد حتى ان واجهت مراحل واوقات متميزة بالشدة والحرج لوجودها من الاضطرابات والفتن والمحن، اذ كما يؤكد عليها لوبون خلال طروحاته الفكرية ان التغيرات الوهمية التي نراها انما هي في حقيقة الامر نفس الصفات والمميزات القديمة لتلك الشعوب مع فارق وحيد تكمن في كونها مغطاه بلباس جديد تختلف عن الثوب القديم، وبهدف اثبات هذه الرؤية يشير لوبون الى مثال ماهية مفهوم

الثورة عند الشعب الفرنسي الذي قام بثورة من اجل احداث تغير في المنظومة السياسية لها وتوفير حق المواطنة ومايماثلها من حقوق ومتطلبات انسانية في هذا المجال، الا ان النظام الجديد كان اقرب ما يكون الى النظام الملكي القديم ذو الطابع الاستبدادي، الا انه تميز عن النظام السابق من حيث المظهر ليس الا كما اثبته التاريخ(١).

لاسيما ان ماهية روح وعرق الشعوب هي التي تحدد كيفية تقلبات الصفات المتنوعة والمتباينة للانسان، لكونها يمتاز بقدر كبير من الثبات، حتى ان المفاهيم والقيم الاجتماعية ليس بمقدورها تجاوز قدراتها وتاثيراتها الفعلية، اذ ان وصاية العرق هي الاساس في تصبيغ الشعوب والمجتمعات الانسانية على مر العصور(٢)، الا ان الكثير من الدراسات الفلسفية والعلمية للتاريخ اظهرت وبينت ان التطورات التي صاحبت الانسان خلال مراحل تاريخها، انما كانت وفق اسس من توفير الاجواء والظروف الحياتية المتميزة بوجود الحرية السياسية والفكرية، بمعزل عن تأثير العرق، لاسيما عند الحديث عن العرق الغالب او المغلوب(٣)، لان التاريخ البشري اصلاً يظهرمن اعماق الفكر الانساني الى الحياة الاجتماعية الظاهرية وفق نوع من الحركة مابين القوى والمؤثرات المعنوية ومابين القوى والمكونات المادية لهذا الوجود(٤).

التي تجعل من الكينونة الوجودية للانسان تتميز بنوع من التعقيد والتشابك قد يحير الكثير من الباحثين والمفكرين عند الخوض في دراستها، لاسيما من خلال النظر اليها وفق التغيرات الزمانية والمكانية، حيث من الصعب التكهن في ماهية الصفات والخواص الانسانية التي اوجدتها المراحل التاريخية اصلاً، والمؤثرة في قيام واستمرارية بنية العلاقات

(١) جوستاف لوبون، سر تقدم الامم، ٢٣-٢٥

(٢) غوستاف لوبون، روح الثورات والثورة الفرنسية، ت: محمد عادل زعيتر، المطبعة العصرية، القاهرة- مصر، ط٢ ١٩٣٢، ص٥٨

(٣) جان توشار واخرون، تاريخ الفكر السياسي،ج٢، ت: علي مقلد، الدار العالمية للطباعة والنشر، بيروت- لبنان، ط١ ١٩٨١، ص٤٠١

(٤) مسلم الجابري، العقل والتاريخ، مكتبة الهلال، بيروت- لبنان، ط١ ٢٠٠٥، ص١٨٤

الاجتماعية للشعوب والمجتمعات الحضارية للانسانية(١) وهذا ما اثبتته الدراسات الانثروبولوجية التي اكدت على ان مفهوم العرق هو مفهوم مطاطي لايمكن اعطاء مفاهيم علمية ودقيقة له، وكذلك منحه مقياس ثابتة يمكن ان نحدد طبيعة هذا المفهوم على وجه الدقة وبصورة قطعية، من خلال الخلط والتعقيد التي تكتنف حول ماهية اصل العروق واختلافاتها حتى داخل عائلة واحدة لسلالة معينة(٢).

بل اكثر من ذلك ان ماهية مفهوم التعليم عند الانسان تقلل من اهمية قوة مفهوم العرق، لاسيما عند النظر الى الادلة والشواهد التاريخية، فالفلاحون الانكليز الذين توجهوا نحو المستعمرات الامريكية ظهرت فيهم ثلاثة انماط وامثال مختلفة وان كانوا ذو عرق واحد، وفقاً للاماكن الجغرافية المختلفة الذين تواجدوا فيها، اذ ظهر فيهم الشماليين الذين تميزوا بالمهارة في القدرات الزراعية، او الجبليين الذين تميزوا بأنهم كانوا فوضويين وذوى قدر كبير من الحركة، بينما كانت الفئة الثالثة الذين عرفوا بالفرجينين المتميزين بقدر كبير من الاداب والخلق الرفيع(٣)، الجدير بالذكر ان الصفات والخواص الاساسية والجوهرية للبشرية لم يكن شرطاً لاحداث التغيرات التي شهدتها اوربا منذ العصور القديمة وحتى يومنا الحاضر، بل ان المفاهيم والقيم الثقافية كانت هي الاساس في احداث تلك التغيرات من خلال توظيفها بهدف السيطرة والتحكم بالاخرين(٤).

يظهر من خلال هذه النقطة بالتحديد ان الاساس في قيام المجتمعات الحضارية والتحولات التي تشهدها وصولاً الى حاله من الرقى والازدهار، انما يتوافق على احداث التغيرات في بنية المفاهيم والقيم الفكرية والثقافية، والدليل يظهر من خلال دراسة

(١) ادوارد كار، ماهو التاريخ، ت: ماهر الكيالي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت– لبنان، ط٣ ١٩٨٦، ص٣٥

(٢) هاري المر بارنز، تاريخ الكتابة التاريخية، ت: محمد عبدالرحمن البرج، ج٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة– مصر، ط١ ١٩٨٧، ص١٨٢

(٣) بيتر فارب، بنو الانسان، ص١٧٠

(٤) رالف لنتون، دراسة الانسان، ت:عبدالملك الناشف،منشورات المكتبة العصرية، صيدا– لبنان،ط١ ١٩٦٤،ص٧٥–٧٦

تاريخ المجتمع الاوربي بعينه التي تميزت بفترات كانت احوال الشعوب والمجتمعات في نوع من التخلف الحضاري، بينما كانت فترات اخرى متميزة بقدر كبير من التطور، في حين كانت الاجناس والاعراق نفسها خلال الفترتين سواء التي كانت في زمن التخلف اوالتي تميزت بالتطور.

خلاصة القول يشير لوبون الى ان التغير والتحول في البنية والمرتكزات العقلية لامة من الامم لايكون الا بتاثير العوامل والمؤثرات الوراثية، اما المؤثرات الاخرى فانها اقل تأثيراً، وتاتي بدرجة ثانوية وتتميز بضعف كبير، اذ لا يكون لها تاثير الا بمرور ازمان طويلة من حياة الانسان، لاسيما اذا كانت الصفات اساسية وجوهرية في ذاتية الانسان، ومع ذلك يعترف لوبون انه من الممكن تغير تلك الصفات كذلك رغم كونها متميزة بقدر كبير من الصلابة وامتداد الجذور في الاعماق، اذ يحتاج الى فترات طويلة في حياة المجتمعات لكي يتم ذلك التغيروالتحول(١).

بهدف اثبات صحة هذا القول من عدمه تشير الكثير من الدراسات العلمية المختصة بالمجتمعات الانسانية على ان البشرية قد شهدت الكثير من التحولات والتغيرات الاجتماعية ضمن مراحل تاريخية اتسمت بالتوازي الحضاري للمجتمعات المتعددة، اذ كان اجداد المجتمعات الاوربية في حالة بدائية شبيهه بالمجتمعات البدائية في عصرنا الحالي من الهنود الحمر في امريكا واستراليا، وغيرهم من المجتمعات الاخرى التي كانت في نوع من الحالة البدائية، والجدير بالذكر ان الحالة الاجتماعية هي التي شهدت تلك التغيرات من خلال تغير في المفهوم الثقافي والفكري لاوربا التي كانت اقرب مايكون الى تلك المجتمعات البدائية(٢)، إذ ان حياة الانسان الفيزيائية مرهونة بالقوة والتأثيرات الاجتماعية التي شهدتها البشرية خلال مراحل حياتها التاريخية من خلال تأثير القوة الثقافية والاقتصادية، رغم ان الجانب الطبيعي اوالفطري للانسان اكثر صلابة من الجانب

(١) جوستاف لوبون، سر تقدم الامم، ص٢٧

(٢) وسام العثمان، المدخل الى الانثروبولوجيا، الاهالي للطباعة والنشروالتوزيع، دمشق- سوريا، ط١ ٢٠٠٢،ص١٣

الاجتماعي، الا انها تخضع لسيطرتها من حيث الجوهر وبدرجة كبيرة([1])، وبالتالي فأن الخوض في دراسة هذا النوع من المسائل والمواضيع يحتاج الى دراسة متأنية بعيدة عن روح التسلط الفلسفي والنظري وفرضها على الواقع العلمي([2]).

يتبين لنا من خلال ما سبق ان المعضلة لاتكمن في مدى ماهية الصلابة والثبات في الخصائص والصفات الوراثية عند الشعوب، اذ يمكن القول ان تلك الصفات ثابتة لدرجة كبيرة، الا انه لايغير من الموضوع في شئ نظراً لكونها واقعية اوتخضع لتاثيرات المفاهيم الاجتماعية المكتسبة التي يستطيع اي انسان الحصول عليها، وتوظيفها في احداث التغيرات والتحولات المرجوة للانسانية، لاسيما القوة الفكرية والايدولوجية والاقتصادية التي يكون لها باع طويل في ايصال المجتمعات الانسانية الى قمة التطور والتحول الحضاري، بمعزل عن تاثير القوة الوراثية وان كانت لها تاثير محدد في بعض الجوانب للبشرية، اذ يمكن القول انه رغم التأثير الكبير للمؤثرات المكتسبة في ذلك كما تدل عليها المشاهد والاحداث التاريخية عبر العصور، الا اننا لاننكر تاثير المفهوم الوراثي كذلك لدرجة ان نقول وكأنه معدوم تماماً.

المبحث الثاني– الطبقات النفسية للامم :

يؤكد لوبون على تقسيم طبيعي معين للمجتمعات البشرية المبنية على اساس بعض الصفات والظواهر التي تتميز على اقل تقدير عنده بالثبات والصلابة، إذ هنالك مجتمعات هي بدائية لدرجة يمكن تسميتها بالامم الاولى، ثم ياتي بعدهم امم وشعوب اخرى قد يكون اكثر تطوراً وحضارة ان جاز القول ويطلق عليهم مفهوم الامم الدنيا، ثم الامم الوسطى التي تميزت بوجود نوع من القيم الحضارية عنده، ثم الامم الراقية(العليا) المتميزة بقدر كبير من الحضارة، والمرتكزات التي بنيت عليها هذه التقسيمات هي عباره عن مفهوم الخلق ثم الاداب، اذ ان الصفات العقلية عند الانسان قد تتاثر وتتغير بالتربية

(١) ف.ب. توغارينوف، الطبيعة– الحضارة– الانسان، ت: رضوان القضماني، دار الفارابي، بيروت– لبنان، ط١ ١٩٨٧، ص١٥٤

(٢) البرت اشفيتر، فلسفة الحضارة، ت: عبدالرحمن بدوي، دار الاندلس للطباعة والنشروالتوزيع، بيروت– لبنان،ط٣ ١٩٨٣، ص٤٧

والقيم الادبية، في حين ان الصفات الخلقية والادبية غير قابلة وبشكل مطلق للتغير والتحول عند الامم والشعوب، كما تدل عليها الشواهد والادلة التاريخية عند ملاحظة سير المجتمعات الانسانية، اذ لايمكن باي حال من الاحوال اختلاط امتين مختلفين عرقياً ضمن حضارة واحدة في هذه الوجود، لاسيما ان تلك الصفات الاساسية كما يزعم لوبون قليلة العدد تحتاج لسطراو بعض من اسطر لسردها وبيانها ويمكن التحكم والسيطرة عليها بسهولة، وهذا ما يمنع الباحثين في هذا المجال سهولة الدراسة لكونها تعمتد على بعض الصفات الثابتة وقليلة العدد بمعزل عن الصفات الاخرى الكثيرة العدد وتعتبر ثانوية ليس لها اية تاثير يذكر في تحديد ماهية عرق ومفهوم الامم والشعوب(١).

لكن لو نظرنا الى ذاتية الانسان اصلاً لوجدنا انها تتميز ببعض الخصائص تجعلها قادرة على اكتساب وتقبل الكثير من الخبرات المعرفية والتجربية المختلفة للحياة مابين الشعوب والمجتمعات، لاسيما ان تلك الامور لها قابلية الانتقال والحركة بمعزل عن تاثير ماهية المفهوم العرقي والوراثي اصلاً، اذ ان الانسان متميز بأنه يحوي في داخله للكثير من الوسائل والخصائص من اللغة والطباع وبعض العادات والتقاليد تمنحه القدرة على الاختلاط وتبادل الافكار والاراء فيما بينهم(٢)، لانه من المتعارف عليه عند البشرية ان جميع الاجناس والاعراق لها صفات مشتركة، منها على سبيل المثال ما يمكن معرفتها بالتربية والاخلاق، وهي من المميزات التي تتكون لدى الانسان عند الاحساس والشعور بالاخرين،هذا فضلاً عن معرفة ذاته كذلك، نظراً كونها مجموعة من المقومات التي يتشكل عند الانسان على ضوء اختلاطه بالاخر وفق معايير ومقايس تعود لفترة زمنية معينة(٣)، والدليل على ذلك ان مفهوم التربية والاداب يقتصر على مجموعة من السلوكيات والمواقف التي تغرس في الانسان منذ عهد الطفولة من خلال المبادئ والاسس المتعارف عليها بشرياً، وفي جميع انحاء المعمورة، وتمنح الانسانية سيادة القوة الروحية

(١) جوستاف لوبون، سر تقدم الامم، ص٢٩

(٢) محمد السيد غلاب، تطور الجنس البشري، ص١٤٩

(٣) مايكل كارندرس، لماذا ينفرد الانسان بالثقافة، ت: شوقي جلال، عالم المعرفة، العدد ٢٢٩، لسنة ١٩٩٨، الكويت، ص٩٠

ليس الا([1]). بمعنى اخر ان التربية والصفات الخلقية هي مجموعة من المرتكزات الفطرية التي منحه الله للبشرية من حيث المبدء ولمختلف المجتمعات الانسانية اينما وجدت وكيفما كانت شكلاً ولوناً، دون ان يخص مجتمع بعينه او حضارة معينة تعود لعرق او جنس محدد كما يدعي اصحاب النظرية العنصرية ذلك.

هذا فضلاً عن ان المفهوم العلمي الدقيق يؤكد على ان بعض الصفات الخلقية للانسان انما تتاثر وتتشكل بفعل الاختلاط المتبادل ما بين البشر من خلال الاراء والمواقف المعينة، مع الاخذ بعين الاعتبار اهمية الاختلاف مابين الوالدين في تربية الاجيال، والتي تؤكد عليها الكثير من الدراسات الحديثة لعلم النفس الحديث([2])، والتي رفضت وبشكل قاطع ان تكون الصفات الخلقية والتربوية محددة وكأنها هبة من الطبيعة منحت لبعض البشرية، لاسيما ان ذلك مخالف للمنطق العلمي والعقلي، بما يتنافى مع ماهية العلوم التي تكتسب عن طريق الجهد، اذ ان عكس ذلك يعني تحبيذ الاهمال واليأس([3]).

ثم ياتي لوبون بعد ذلك الى ذكر تفاصيل عن ماهية الامم والشعوب التي منحتها تلك التقسيمات فيشيرالى ان الامم الاولى معروفة بكونها محرومة من الناحية العلمية ولا اثر لهذا المفهوم عندها، بل انها بقيت على حالتها البدائية دون تغير، وهي شبيه بالكائنات الحيوانية التي هي في الطور البدائي جداً، اذ بقيت في نفس الفترة التي كانت اجداد الامم والشعوب الاوربية تعيش فيها خلال العصر الحجري القديم كمثال على تلك الامم في الوقت الحاضر هم سكان استراليا الاصلين وغيرهم من الامم القاطنة في بعض الجزر النائية عند المحيط الاطلسي، ومن ثم تأتي الامم الدنيا الذين يتميزون بوجود نوع من الحضارة البدائية والقيم المعرفية منهم على سبيل المثال الزنوج، مع انهم لم يتجاوزوا بعد

(١) ليكونت دي نوى، مصير البشرية، ت: احمد عزت طه، دار اليقضة العربية للتأليف والترجمة والنشر، دمشق- سوريا، د.ت، ص١٥٢

(٢) جون كارل فلوجل، الانسان والاخلاق والمجتمع، ت: عثمان نويه، دار الفكر العربي، القاهرة- مصر، د.ت، ص١٠٣-١٠٤

(٣) جون هرمال راندال، تكوين العقل الحديث، ج١، ت: جورج طعمة، دار الثقافة، بيروت- لبنان، د.ت، ص٤٠٦

المرحلة البدائية والبربرية بدرجة كبيرة كما تشهد عليها الادلة والبراهين التاريخية، وان استطاعوا من اكتساب بعض المعارف والعلوم والقيم الحضارية من الاخرين، ثم يتطرق الى ذكر الامم الوسطى من الصينين واليابانين والمغول، الذين تمكنوا من تجاوز المرحلة البدائية و الوصول الى نوع من العطاء والقدرة الحضارية قد تكون راقية، واخيراً يأتي الى ذكر الامم الراقية ويخص بها الشعوب الاوربية حصراً، لكونهم استطاعوا من انجاز الكثير من الابداعات والاختراعات المتنوعة لمختلف المجالات الحيوية للبشرية من الفنون والصناعة، منذ العصور اليونانية والرومانية وصولاً الى العصر الحديث عندما تمكنوا من اكتشاف البخار الكهربائي([1]).

في المجمل فأنه يعتقد ان التمايز بين الانواع الاربعة المختلفة اصلاً واضح وجلي، لايمكن بأي حال من الاحوال خلط تلك الامم، لاسيما فيما يتعلق بالقدرات العقلية التي تتميز الامم عن بعضها البعض بشكل عام، بل ان الصعوبة تظهر عند دراسة الاقسام والفروعات الداخلية للامة الواحدة من بين تلك الامم الاربعة، كما هي عند دراسة الفرع الاسباني والانكليزي والروسي وهكذا([2]). هذا هي راي ونظرة اصحاب المدرسة العنصرية ككل، اذ يؤكدون على رفض مفهوم التساوي ما بين المجتمع الانساني على اعتبار انها اكذوبة واضحة الهدف منها تشويه الحقيقة العلمية والمعرفية للبشرية اذ تسبّب ذلك في تزييف الحقائق الصادقة عن ماهية المفهوم الحضاري للانسانية والذي يسوقه اصحاب نظرية المساواة الانسانية([3]).

الا ان الدراسات الحديثة ترفض تلك التقسيمات والتمايز جملة وتفصيلاً حول قوة وقدرة الاجناس البشرية في العطاء الحضاري، اذ تشير تلك الدراسات الى ان الجنس الاوربي وبمختلف فروعه ساهم في انجازوتكوين حضارات كبرى، والحال كذلك مع الجنس الاسمر الذي كان له دور محوري وفعال في حضارتين على اقل تقدير منها الحضارة السندية والحضارة الهندوكية، كما اسهم الجنس الاصفر في انشاء ثلاثة حضارات راقية والتي

(١) جوستاف لوبون، سر تقدم الامم، ص٣٠

(٢) جوستاف لوبون، سر تقدم الامم، ص٣٠-١٣

(٣) فردريش نيتشة، هذا هو الانسان، ت: على مصباح، منشورات الجمل، كولونيا- المانيا، ط٢ ٢٠٠٦، ص٨

تمثلت في كل من الحضارة الصينية وحضارة الشرق الاقصى، فضلاً عن الحضارة اليابانية، اما الجنس الاحمر لاسيما الهنود الحمر فقد اسهموا كما تشير الادلة التاريخية في تكوين حضارات راقية لامريكا القديمة، يبقى فقط العنصر الاسود التي كان اقل حظاً من الاجناس الاخرى في المساهمة الحضارية للانسانية بصورة ايجابية(١).

كذلك تؤكد دراسات اخرى على انه باستثناء بعض الاقاليم والجماعات العرقية لاستراليا التي بقيت في حالة بدائية، فان الاجناس الاخرى كان لها قدر كبير من العطاء والانجاز الحضاري، وهذا ما يدحض النظرية العنصرية من اساسها، لاسيما عند الاوساط العلمية والاكاديمية بمعزل عن الوسط الجماهيري التي ايدت الفكرة العنصرية بصورة عاطفية بعيدة عن روح وماهية المفهوم العلمي لها(٢)،لاسيما بعد التطورات الهائلة التي شهدتها اوربا في جميع نواحي الحياة الحضارية، والتي اعتبرت على اساسها انها شعوب راقية ومتطورة مقارنة بالاخرين، الا ان هذا النوع من الدراسة في حقيقية الامر متميز اصلاً بنوع من التعقيد، لاسيما من الناحية العلمية التي ترفض هذا النوع من النظريات التي تؤكد على ان الحضارة هي من انجاز وفعل جنس بعينه(٣).

يبدو ان الادلة التي استعان بها اصحاب المدرسة العنصرية لتفسير التاريخ انما جاءت من خلال التاريخ الحديث حصراً، لاسيما تاريخ بلاد ماوراء البحار، نظراً لكون المعرفة التاريخية لهولاء الشعوب تمتاز بالتخلف العلمي من خلال عدم وجود تدوين تاريخي لها، عكس الشعوب الاوربية التي حافظت على تدوينها التاريخي، الدليل على ذلك انه عندما تم كشف الحقائق العلمية لسير الحركة التاريخية لتلك الشعوب، تبينت انها كانت مهد الحضارة الانسانية من خلال الابداعات التي شهدتها في مجال القطاع الزراعي، هذا فضلاً عن التطورات التي تميزت بها الجوانب الاجتماعية، عكس ما يدعيه

(١) توينبي، مختصر دراسة التاريخ، ص٩٢

(٢) رالف لنتون، دراسة الانسان، ص٧٢

(٣) كرين برينتون، تشكيل العقل الحديث، ت: شوقي جلال، عالم المعرفة، العدد ٨٢، لسنة ١٩٨٤، الكويت، ص٣٤٢

التفسير العرقي للتاريخ([١])، اذ يمكن القول ان الاقاليم الجغرافية التي تعرف اليوم بقارة اسيا كانت بمثابة مهد الحضارة الانسانية، اذ منحت الكثير من العطاء الحضاري للمجتمعات الاوربية وغيرها من المجتمعات الانسانية في العصور القديمة للتاريخ([٢]).

هذا ما تبرهن عليها الادلة التاريخية الحقيقية التي تؤكد على ان اقدم واكبر الانجازات التي توصلت اليها الانسانية خلال مراحل تاريخها الوجودي انما كانت في اقاليم ومناطق بلاد الرافدين القديم، وكذلك الحال مع مصر القديمة، فضلاً عن اقاليم الهند والصين التي ربما يحتاج الى مؤلفات عديدة من اجل بيان حقيقة تلك العطاءات الحضارية للبشرية ككل([٣]).

كل ذلك نابع من الكينونة الانسانية بحد ذاته، اذ يحوي الانسان في طياته رغبات وطموحات تمنحه القوة والحيوية بهدف القيام والانجاز الحضاري، اوعكس ذلك تماماً عندما تتحول تلك الرغبات الى نوع من اللانانية والكسل تجعل منه وكأنه لاشئ في هذا الوجود، والجدير بالذكر ان تلك الصفات مترسخة ومتعمقة في ذاته([٤]). وهذا ما يظهر ان التقدم والتغير انما هو يتوقف على طموح ورغبة الانسان من اجل قيام حضارة معينة لشعب من الشعوب الانسانية اينما كانت وفي اية ظروف وجدت، بمعزل عن ان يكون الاثر الكبير للعرق او اي شئ اخر، بل ان جميع العوامل ان كانت انسانية او مادية انما تساهم وتساند البشرية في ذلك، اذ وجدت تلك الماديات اصلاً ليكون في خدمة الانسان ككل دون عرق او سلالة بعينه.

اذ تشير الدراسات العلمية كذلك على نقطة معينة تتلخص في ان جنساً اوعرقاً معيناً لايمكنه انجاز وقيادة مهمة حضارية لوحده، دون مساندة الامم والشعوب الاخرى، مهما

---

(١) مجموعة من المؤلفين، نظرات جديدة على الكتابة التاريخية، تحرير بيتر بوركي، ت: قاسم عبده قاسم، المركز القومي للترجمة، القاهرة– مصر،ط١ ٢٠١٠، ص١١٣

(٢)جوردن اليست، الجغرافيا توجه التاريخ، ت: جمال الدين الدياصوري، دار الهلال، القاهرة– مصر، د.ت،ص١٥٧–١٥٨

(٣) احمد حسين، الطاقة الانسانية، دار القلم، القاهرة– مصر، ط٢ ١٩٦٣، ص٧١

(٤) اريك فروم، الانسان بين الجوهر والمظهر، ت: سعد زهران، عالم المعرفة، العدد ١٤٠، لسنة ١٩٨٩، الكويت، ص٩٢

كان ذلك العرق متطوراً ومتقدماً عقلياً وثقافياً، اذ ان المجتمعات تمنحه القوة والدعم الكافي من اجل اتمام الانجاز والسير نحو قمة المفهوم الحضاري(١).

يستمر لوبون في شروحاته عن تلك الامم، فيشير الى ان الامم الدنيا متميزة بضعف في البنية العقلية مع الاخذ بعين الاعتبار مبدء الاختلاف والتفاوت بين افرادها، يظهرذلك من خلال مشاهد الحياة اليومية لهم عند مداراتهم لها من خلال القدرة الحسية التي تمنحهم نوعاً من القابلية العقلية بهدف ايجاد الحلول للمشاكل التي تعترضهم، ويمكن معرفة هذه المجتمعات المتدنية عرقيا عند النظر الى الطبقات المتدنية في المجتمع الاوربي، اذ ان تلك الطبقات شبيهه جداً كما يعتقد لوبون من حيث الجوهر الى طبيعة هذه الامم المتخلفة، والسبب يكمن عند لوبون في سرعة تصديق الاشياء والاحداث، وكذلك فقدان مفهوم النقد، اذ ان ملكة النقد عند هولاء معدومة، بعكس الامم الراقية التي تمتاز بكونها ذو ملكة نقد محرر وفاعل بدرجة كبيرة، هذا فضلاً عن التميز بين ماهو خير وصلاح وبين ماهو عكس ذلك،الذي يكون غير موجود عند الامم الدنيا، وكذلك تفتقر الامم الدنيا الى ماهية التحليل والتامل،هذا فضلاً عن ظاهرة التقليد والاستنساخ التي تغلب على عقول هذه الامم من الاخرين، بغض النظر إن كانت صحيحية او باطلة، والسبب يكمن في ان تلك الاستنساخات تأخذ من الجزئيات بمعزل عن المفهوم الكلي للمسألة والتي لايمكن ان يبني عليها شيئاً، وكذلك يتميزون بكون ذوي اخلاق متقلبة وليس لهم قدرات الهامية مسبقة للاشياء والاحداث(٢).

هذه الانوع من التفسيرات عند النظرية العنصرية تعرف بمفهوم الاتزان الداخلي في الحياة الانسانية لكونها الاساس في منحها القوة والمقدرة بهدف خلق الاستقرار، اذ لا حياة بدون ذلك المفهوم الذي يعمل على منع انتشار الظلم والطغيان والفوضى، وبالتالي يجعل من الامم التي تفتقد ذلك وكأنها في حال ميتة فاقدة للحياة(٣). قد يكون ذلك صحيحاً ولاغبارعليه، الا ان كل الامم والشعوب معرضة لهذا الامر بمعزل عن العرق والجنس ،

(١) يوسف الحوراني، الانسان والحضارة، منشورات مكتبة الحياة، بيروت– لبنان، د.ت، ص٦٤
(٢) جوستاف لوبون، سر تقدم الامم، ص٣١
(٣) حسين مؤنيس، التاريخ والمؤرخون، دار الرشاد، القاهرة– مصر، ط٢ ٢٠٠٦، ص٨٠–٨١

كما تشهد على ذلك الادلة والشواهد التاريخية، وانما هنالك عوامل اخرى تتمثل في طبيعة الظروف التي تعيش فيها سواء من الناحية السياسية والاقتصادية او الاجتماعية، وقد يشعر بها الكثير من الافراد بأعتبارها غير صحيحة لمسارتاريخهم، الا ان تلك الاحوال تكون عاجزة عن احداث التغيرات، لاسيما ان كانت تلك العوائق مصدرها من الخارج او بالاحرى من القوى الاستعمارية التى تحاول جاهدة لبقاء تلك الامم في حالة من التخلف لضمان مصالحها بشكل او بأخر، هذا مع الاشارة الى ان الكثير من افراد الامم المتخلفة حسب مزاعم الفلاسفة العنصرية هم في حقيقة الامر لهم ادوار كبيرة في بقاء واستمرارية الامم الراقية على حالها كما هي اوربا في الوقت الراهن التي تستفيد من خبرات الكثير من الهنود والعرب والفرس واليابايين والصينين وغيرهم من الاقوام التي يرونها انها متخلفة عنهم.

كذلك لو درسنا الامر من الناحية البيولوجية لظهر لنا، انه لايمكن بأي حال من الاحوال تقبل وجود هذه النوع من الاختلاف الكبير مابين افراد تلك الامم، لكونهم كائنات اجتماعية متشابهه لدرجة كبيرة، اذ يمكن الوقوف عند هذه النقطة عند ملاحظة ظاهرة الزواج على سبيل المثال التي تكون طبيعية ومقبولة مابين جميع الافراد اينما كانوا، كذلك بأمكان اي فرد القيام بأعمال وأنجازات الامم الراقية لو توفرت الارضية والمستلزمات كما هي عند الامم الراقية، اذ لايمكن القبول بهذا النوع من النظريات التي تدعي ان بعض الامم قد خلقت ناقصة عقلياً وان البعض الاخر خلقت خصيصاً للسيادة(١)، اذ بينت الدراسات العلمية الحديثة ان المعضلة تكمن في طريقة وماهية الاسلوب المتبع في التفكير عند ذاتية الانسان، وليس في وجود هذا المفهوم بحد ذاته عند كينونته، اذ ان المقدرة العقلية متشابهة ومتماثلة عند كافة الافراد للمجتمع البشري، وانما يتوقف الامرعلى الخبرات والتجارب المكتسبة(٢).

هذا فضلاً عن التحكم الصارم للرغيات والطموحات المنغرسة بداخله سواء عند الافراد اوالمجتمعات البشرية ككل،اذ يعني ذلك بمجمله الاخذ بمبدء الفضلية التي تتوقف على

(١) محمد السيد غلاب، تطور الجس البشري، ص١٤٦

(٢) وسام العثمان، المدخل الى الانثروبولوجيا، ص٦٧

كيفية تحكم الانسان بتلك الطموحات وتوظيفها في المجال الصحيح(١)، وهذا ما تؤكده الادلة والشواهد العلمية التاريخية التي تبين ان اكثرية العباقرة والمبدعين انما كانوا في الامم و الشعوب المتسمة بالتخلف، اذ يمكن القول ان التطور والرقى انما هي كفاءة ومقدرة مكتسبة بمعزل عن التاثير الوراثي للانسان(٢). التي يرفضها اصحاب المدرسة العنصرية لتفسير التاريخ، على اعتبار انه مهما كانت الاوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية ذو تاثير على بقاء المجتمعات الانسانية في حالة من التخلف المعاشي الا ان التاثير المباشر انما يكون للمرتكزات الوراثية حصراً، وهذا ما يجعل فرضيتهم فارغة مبنية على اسس غير سليمة من الناحية العلمية(٣) لاسيما ان المقياس الذي تم توظيفه لاثبات صدق تلك الادعاءات التفسير العنصري انما كان في الانجازات الغير الايجابية للبشرية من خلال الاشادة بالكثير من العمليات الاجرامية وكأنها مقومات حضارية(٤).

ثم ياتي لوبون الى ذكر المؤثرات الاساسية في تكوين الوضع والحالة النفسية للامم الراقية،التي تكون بفعل الطاقة الخلقية، وان كانت هنالك مؤثرات ثانوية الى جانب القوة الخلقية والمتمثلة بالذكاء على سبيل المثال، الا ان الاساس يكمن في الطبيعة الخلقية كما يؤكد عليه العلم الحديث،والذي من الواجب بيانه بأي طريقة كانت(٥)،بالتالي يمكن تعريف الخلق كما يعتقد به لوبون على انه مجموعه من الاسس والعناصر الممزوجة التي سماها علماء علم النفس الحديث بالمشاعر،التي تتكون في حد ذاته من مجموعة من السلوكيات الانسانية والمتمثلة بالعزيمة والقدرة على التحكم بالنفس، والتي تخضع بمجملها لمفهوم

(١) حسين سلامة، الفرد والمجتمع، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت– لبنان، ط١ ٢٠٠٩، ص٣٣

(٢) ول ديورانت، قصة الفلسفة، ت: فتح الله محمد المشعشع، منشورات مكتبة المعارف، بيروت– لبنان، ط١ ٢٠٠٤، ص٣٣٥

(٣) محمود محمد الحويري، منهج البحث في التاريخ، المكتب العصري لتوزيع المطبوعات، القاهرة– مصر، ط١ ٢٠٠١،ص١٣٣

(٤) احمد محمود صبحي، في فلسفة التاريخ، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الاسكندرية– مصر، ط٤ ٢٠٠٤، ص١١٩

(٥) جوستاف لوبون، سر تقدم الامم، ص٣١

الارادة والسلطة البشرية، هذا فضلاً عن مفهوم ماهية الاداب التي بدورها تتكون من مجموعه من المشاعر المتباينة اصلاً، ثم يتحدث لوبون عن القوة العقلية التي يمكن ان يحدث او يطرأ عليها تغيرات طفيفة تحت سلطة ووصاية المفهوم الاجتماعي، بعكس الصفات الخلقية التي من شبه المستحيل ان تظهر عليها تغيرات وتحولات، نظراً لكونها متميزة بدرجة كبيرة من الثبات والصلابة، بأستثناء الضعفاء من الناس الذين فقدوا الارادة وخضعوا لمفهوم القوة الاجتماعية لاسيما التربية، وعلى ذلك الاساس يمكن ملاحظة ان الابداعات والاكتشافات الناجمة عن المقدرة العقلية يمكن ان تنتقل من امة الى اخرى، باعتبارها ملك لجميع البشرية اينما وجدوا، بمعزل عن الصفات الخلقية الاساسية التي لايمكن ان تخرج من والى اخرى سواء كانت ايجابية ام سلبية، حالها حال الصخرة القوية التي لا تؤثر فيها الامواج مهما كانت عاتية وقوية ومهما مرت عليها الازمان(١).

الا ان المفهوم العلمي الاكثر قبولاً حتى في اوساط الباحثين لعلم النفس الانساني، تكمن في ان المؤثرات الاجتماعية التاريخية هي اكثر قوة وتأثيراً من الصفات الخلقية والكينونة الانسانية في هذا الوجود، لاسيما من خلال الاخذ بمبدء تراكم المعلومات والمقدرات المعرفية التي يتم توظيفها من قبل المجتمعات على اعتبار انها انجازات بشرية للجميع وغيرمرتبط بجنس اوعرق معين(٢)، اذ ان الانسان مهما بلغ درجة راقية من العطاء الحضاري، فأنه لايبلغ حد الكمال وانما يتميز بالكثير من النواقص حيث يحتاج الى الكثير من الجهد بهدف الاستمرار في التغير والتحول نحو حالة افضل مماهو عليه من خلال اكتساب الطاقات اللازمة من التكنلوجيا في الوسط الذي يعيش فيه، بمعنى ان جميع الابداعات البشرية انما جاءت بجهد وعناء دون ان يكون هبة من الطبيعة او مرتبطة بامة محددة(٣)، اذ لا يمكن القول ان الاذكياء والمبدعين انما كانوا من عنصر واحد، او بمعنى اخر القول ان عملية التقدم والتطور محتكر على جنس معين بغض

(١) جوستاف لوبون، سر تقدم الامم، ص٣٢-٣٣

(٢) الكسندر روشكا، الابداع العام والخاص، ت: غسان عبدالحميد، عالم المعرفة، العدد ١٤٤، لسنة ١٩٨٩، الكويت، ص٨١

(٣) سعيد محمد الحفار، البيولوجيا ومصير الانسان، عالم المعرفة، العدد ٣٨، لسنة ١٩٨٤، الكويت، ص١٨٧

النظر عن الاخرين، اذ يمكن مشاهدة الموهوبين والمبدعين بين سائر الامم والشعوب، اذ لا يمكن قياس درجة المقدرات العقلية والخلقية في الانسان بهذه المطلقية المقيتة(١) نظراً لكونها متشابهة وبدرجة كبيرة كما تؤكد عليها الدراسات المختصة بعلم الانثروبولوجيا التي ترى في ان المسيرة الطويلة للبشرية تثبت ذلك بصورة قاطعة(٢)،بالاضافة الى صعوبة التحديد والتكهن بماهية التطور والتقدم اصلاً عند الشعوب، اذ انه من اصعب المفاهيم التي حيرت فلسفة التاريخ ، إذ لم يجد لها جواب محدد وعلمي يكون كافياً وشاملاً نظراً لتداخل الكثير من الاموروالظواهر فيه سواء كانت معنوية او مادية(٣).

بهدف اثبات صحة ادعاءته يذكر لوبون انه كيف استطاع عدد قليل من الانكليز لم يتجاوز الالف التحكم والسيطرة على الهنود الذين كانوا في حدود خمسين مليون انسان، وليس هذا فحسب ان المقدرة العقلية للهنود كان اكثر رقياً في بعض المعارف مثل الفنون والفلسفة من الانكليز، اذ لولا الصفات الخلقية عند الانكليز لما تمكنوا اصلاً من التحكم بهذه الامبراطوية الواسعة المترامية الاطراف حول العالم، بمعزل عن ان يكون ذلك التحكم ناتج من جهد انساني، بل ان المقدرات الخلقية هي العامل المؤثر والحقيقي في بناء المعتقدات والانظمة والمماليك، وكذلك يمكن عن طريق المرتكزات الخلقية معرفة ماهية العمل، بغض النظر عن العلوم والمعارف، اذ لو درس غير الاوربي من اليابانين والزنوج الفي سنة فليس بمقدورهم بلوغ درجة ومكانة الانكليزي، حتى لو وصل الامر به الى ارقى درجات الشهادة العلمية لكونها امور ظاهرية سطحية لا اكثر(٤)

كذلك يمكن ملاحظة دليل اخر من مشهد تاريخي، وتتلخص في انه مهما كانت الامه مزدهرة وقوية من الناحية الحضارية(العلمية والفلسفية) فانها تقع تحت سلطة وحكم الامم

(١)وليم بويد، اسحاق ازيموف، الاجناس والشعوب، ص١٧٤

(٢) حسين مؤنيس، الحضارة، عالم المعرفة، العدد١، لسنة ١٩٧٨، الكويت،ص٧٠

(٣) احمد بهاءالدين، فزورة التاريخ، مجلة الهلال المصرية، العدد الاول،١٩٨٩\١\١، السنة السابعة والتسعين، ص٩

(٤) جوستاف لوبون، سر تقدم الامم، ص٣٤-٣٦

الراقية من الناحية الخلقية كما كان الحال مع الرومان الذين كانوا اقل حضارة وتمدناً من الاغريق، ومع ذلك استطاعوا التحكم وفرض الوصاية عليهم([١]).

من هذه النقطة يظهر الوجه الحقيقي لفلاسفة المدرسة العنصرية في تفسير التاريخ الذين اعتمدوا في اثبات ارائهم على مبدء القوة والمفهوم الاستغلالي للشعوب من قبل الاقوياء الذين سلطوا بقوتهم وغطرستهم على الفقراء، سواء كان ذلك في التاريخ القديم اوالحديث والمعاصر، او بتعبير اخر يمكن القول ان العنصرية تبرر الاستغلال والاضطهاد بهدف ضمان مصلحة الاقوياء([٢])، وهذا ما دفعت الامم الاوربية والحضارة الغربية ككل الى تدمير البنية الانسانية للشعوب والمجتمعات الفقيرة في افريقيا، اذ تم تدمير الزنوج وانهاك قواهم الوجودية اصلاً([٣])،من خلال الانتقالات الجماعية لهم من قبل الاوروبين الى امريكا بهدف الزج بهم في المزارع والمناجم الى جانب الهنود الحمر، اذ تم تدمير بنية الكثير من العائلات من الزنوج، كل ذلك كان بتبرير من النظرية العنصرية([٤])، لاسيما ان التطور الصناعي الذي شهده العالم الغربي في اوربا ومارافقه من تقدم التكنلوجيا وزيادة الانتاج قد فرضت عليهم ضرورة الاخذ بمبدء العبودية واللامساواة، لانهم كانوا خاضعين للسيطرة الانتاجية([٥])، لاسيما ان الطموح الزنجي لايختلف عن طموح الانكليزي في بناء القدرات الحضارية، اذ ان الحضارة والتمدن غير مستحيلة على احد من

(١) جوستاف لوبون، فلسفة التاريخ، ت: عادل زعيتر، دار المعارف، القاهرة- مصر، ط١ ١٩٥٤، ص١٢٧

(٢) عبدالله محمد عبدالرحمن، علم الاجتماع السياسي، دار النهضة العربية، بيروت- لبنان، ط١ ٢٠٠١، ض٣٠٨

(٣) نازلي اسماعيل حسين، الشعب والتاريخ، دار المعارف بمصر، القاهرة- مصر، ط١ ١٩٧٦، ص١٢٩

(٤) كافين رايلي، الغرب والعالم، ج٢، ت: عبدالوهاب المسيري، عالم المعرفة، العدد ٩٠، لسنة ١٩٨٥،الكويت، ص٨٦

(٥) هربرت ماركوز، الانسان ذو البعد الواحد، ت: جورج طرابيشي، منشورات دار الاداب، بيروت- لبنان، ط٣ ١٩٧٣، ص٦٧

البشر في هذا الكون([1]).وكذلك الحال مع الاعراق الاخرى، إذ لو كان لوبون على قيد الحياة وشاهد ما وصل اليه الشعوب الغير الاوربية من اليابانين والصينين وغيرهم من الاعراق الاسيوية لغير من وجهة نظره، اذ ان ذلك اجحاف واضح وعنصرية مقيتة وبغيضة تجاه تلك الاعراق التي بلغت مستويات عالية من التطور و التقدم الحضاري والتكنلوجي فاقت قدرات الاوربين مرات عديدة اثبتت خطأ التوجه العنصري لتفسير سير الحركة التاريخية.

اما ما يتعلق بسيطرة وتحكم عرق معين بالبشرية، فان الدراسات الحديثة تشير الى ان سيطرة الرجل الابيض الاوربي للعالم هي في حقيقة الامر ظاهرة حديثة جداً، اذ لو كان الامر قائماً على اساس الفطرة العرقية والخلقية اصلاً، لماذا لم تظهر تلك الصفات من قبل، لاسيما ان سيطرة الشعوب الاوربية انما تعود الى القرن الخامس عشر الميلادي وما بعده، وكيف ظهر فجاءة وبهذا الشكل، اذ انه من الجدير بالذكر ان اوربا تعرضت الى الكثير من الغزوات من قبل الشعوب الاسيوية من المغول والاتراك العثمانين الذين وصلوا الى قلب اوربا، بل ان اوربا كانت في طول تاريخها في موقف دفاعي اكثر مما كانت في موقف هجومي([2]).

بالتالي يمكن القول انه لايمكن فقط الاخذ بماهية الجنس كما عند الانكليز وغيره من الشعوب الاوربية لتحليل كيفية التحكم والسيطرة على الشعوب الاخرى، بل من الواجب دراسة عوامل ومؤثرات اخرى او بمعنى اخر دراسة شاملة ومحكمة من الناحية العلمية بمعزل عن تصورات الذين ينادون بسيطرة الرجل الابيض على المجتمعات الملونة الاخرى([3])، اذ ان الانكليز قد وظفوا عدة وسائل وطرق بهدف السيطرة والتحكم للهند والمستعمرات الاخرى منها توظيف القيادات المحلية والمجاميع المتخاصمة داخليا والتي

(١) اليوت م. ردفيك، وليم ادوارد دوبوا، ت: فاروق عبدالقادر، مؤسسة سجل العرب، القاهرة– مصر، ط١ ١٩٦٥، ص٣٧

(٢) رالف لنتون، دراسة الانسان، ص٧٤–٧٥

(٣) مجموعة من المؤلفين، ما التاريخ الان، ت: قاسم عبده قاسم، المشروع القومي للترجمة، القاهرة– مصر، ط١ ٢٠٠٦، ص٢٣١–٢٣٢

تبين فيما بعد انها كانت اكثر نجاحاً في ذلك، بمعنى اخر ان الانكليز لم يحكموا تلك المستعمرات بصورة مباشرة([١])، فيما يتعلق الامر بالرومان فأن المصادر التاريخية تشير الى السياسة التي اتبعها الرومان خلال العصر الامبراطوري وتوسعاتها الخارجية، كانت مبنية على اسس غير عنصرية اصلاً([٢]).تمثلت في عمليات السلب ونهب المستعمرات بهدف ادامة حكمهم الامبراطوري التي استمرت على اساس اتباع سياسية السلب بدل الانتاج الداخلي([٣]).

يستمر لوبون في بيان مكانة وعظمة ماهية الكينونة الانسانية للامم الراقية، من خلال التقسيمات الموجودة فيها و المكونة من هرم في اسفل مراتبها جموع الشعب من الافراد، بينما يشكل النوع السامي الطبقة الوسطى، في حين يشكل الاذكياء والنبغاء والعلماء والمبدعين اصحاب الاكتشافات وكذلك اساتذة القانون والكتاب الطبقة الراقية في اعلى السلم الاجتماعي، رغم ان هولاء هم الاقلية من حيث العدد، الا انهم اكثر تأثيرا في البناء والتطور الحضاري، بمعنى ان الانجازات والابداعات انما هي من عمل هولاء حصراً دون الاخرين نظراً لقوتهم العقلية الفائقة جداً، حتى ان بعض من النظريات والافكار اكدت انه لو ضاع هولاء لضاعت الحضارة، على اساس انهم الرأس والدماغ لجسم الامة من البقية الباقية، بعكس الطبقات الاخرى اذ لو ضاعت جميع افرادها دفعة واحد ما اثرت في العملية التطورية من شئ، وان كانت من الناحية العاطفية تعني فقدانهم ليس الا، وحزنت عليهم الامة عن طيب خاطر([٤]).

(١) عاصم دسوقي، كيف يتناول احمد بهاء الدين التاريخ، مجلة الهلال المصرية، العدد العاشر، ١٩٩٦\١٠\١١، السنة الخامسة بعد المائة، ص٣٧

(٢) دليل بيرنز، المثل السياسية، ت: لويس اسكندر، المركز القومي للترجمة، القاهرة– مصر، ط١ ٢٠٠٧، ص٩٣

(٣) كافين رايلي، الغرب والعالم، ج١، ت: عبدالوهاب المسيري، عالم المعرفة، العدد٩٠، لسنة ١٩٨٥، الكويت، ص١٣٨

(٤) جوستاف لوبون، سر تقدم الامم، ص٣٩

لو اخذنا الامر على اساس ان الانجاز الحضاري انما يتوقف على مجموعة من الافراد عندما يقود او يأخذ هولاء لواء القيادة بهدف ايقاظ روح الشعوب النامية اصلاً، على اساس ان هولاء هم العقلية المبدعة في مجتمعاتهم([1]).

قد يكون ذلك صحيح من الناحية العلمية في العصر الحاضر، لكن ذلك لا يعني على الاطلاق ان تلك الافراد انما يعودون لعرق او جنس معين، بل بالاحرى ان هذه الرؤية تدخل ضمن مفهوم المدرسة البطولية للتاريخ التى ترى ان دور القادة والزعماء سواء كانوا سياسين وعسكرين اومن الاجتماعية او الثقافية انما هي الاساس في سير حركة التاريخ بمعزل عن العرق.

يمكن ملاحظة هذه الظاهرة من خلال العديد من الادلة والشواهد التاريخية التي ذكرت دور الابطال كما كان الحال مع الكثير من الافراد العظام الذين كان لهم دور كبير ومحوري في البناء الحضاري ضمن اقاليم جغرافية مختلفة،مع الاخذ بعين الاعتبار انهم كانوا مختلفين ومتباينين من الناحية الخلقية ومن ناحية الطباع كذلك([2])،اذ اثبت الكثير من الدراسات المعاصرة رفض هذا النوع من التفسيرات القائمة على اساس قوة وقدرة الاعراق والاجناس بكونها المسؤولة عن تحديد سير التطوروالتحول الحضاري للبشرية بل كانت الى جانب ذلك هنالك عوامل ومؤثرات اخرى قد تكون اقوى منها بكثير لاسيما الوسط والمحيط الجغرافي والاجتماعي المتمثل في تراكم الخبرات الانسانية عبر الزمن([3])، اذ ان توظيف المفهوم العنصري لهذا النوع من الدراسات كارثية نوعاً ما، لاسيما انه يمكن معرفة الطبيعة البشرية عند المجتمعات البدائية اكثر من المجتمعات المتطورة والراقية([4]) هذا فضلاً عن انه لايمكن الاخذ بالجزئيات في اثبات صدق المفهوم العلمي للعموميات،

(١) يوسف الحوراني،الانسان والحضارة، ص٥٨

(٢) ارفينج ستون، الجبابرة بناة الحضارة، ت: فؤاد جرجيس نصار، دار الثقافة، بيروت– لبنان، د.ت، ص١٦٥

(٣) دين كيث ساسمنتن، العبقرية والابداع والقيادة، ص٥٩

(٤) ب.ف. سكين، تكنلوجيا والسلوك الانساني، ت: عبدالقادر يوسف، عالم المعرفة، العدد ٣٢، لسنة ١٩٨٠، الكويت، ص١٧١

قد يكون اجراء تجربة على مشهد تاريخي دقيق الاستنتاجات خلال فترة زمنية معينة وفي مكان معين، الا ان الامر قد يختلف عند مجتمع اخر لنفس الفترة وفي مكان اخر، نظراً لكون المسألة تحتاج الى معلومات وفيرة تثبت ذلك(١).

في نهاية الامر يشير لوبون الى ان الامم الراقية معرضة للفناء من خلال عملية الاختلاط مابين الاجناس والشعوب، وهذا مايفرض على تلك الامم ضرورة الحفاظ على دمائهم ان ارادو البقاء على قدراتهم الواعية والنامية،لانه عكس ذلك يعني الاندثار والفناء العرقي، إذ لو تم الاختلاط ما بين امتين مختلفتين عرقياً لظهر ما يمكن تسميته بالمرض الحياتي لهذا الوجود التي تكون بمثابة الزوال والانيهار الوراثي، كما هو الحال مع الفلاح الذي يحاول غرس شجرة صغيرة باخرى كبيرة، يمكن الحصول على شجرة ضخمة متميزة بطول القامة ليس الا في ظاهر الامر، وكانها حيلة صناعية لا اكثر(٢).

هذا النوع من الاختلاط ما بين الشعوب المتباينة من اكثر الاضرار التي لحقت بالامم الراقية وجعلتها تنقرض نوعاً ما تحت تسمية اكذوبة العالم المثل والمساوة التي بلغت حد التقديس، من خلال التدمير والتخريب التي اصابت البنية الحضارية ومنجزاتها، هذا فضلاً عن اهدار حياة المستقبل للانسانية ككل نظراً لالغاء مفهوم الرق مابين العروق البشرية(٣)، مع ذلك فقد اثبت تاريخ اختلاط الشعوب ان تلك الاحكام العرقية انما كانت غريبة جداً عن الانسانية لاسيما عن الغرب، اذ تبين ان التاريخ الانساني ماهو الا اختلاط وتقارب مابين روح الامم والشعوب المختلفة على وجه المعمورة(٤)، رافضاً وبصورة قطعية وجود امة اوعرق نقي خالص، والذي اعتبره البعض ان هذا النوع من النظريات في حقيقة الامر نوع من الاعتباطية لا اكثر، مع وجود المجتمعات الممزوجة عرقياً في الواقع الانساني الذي لا يمكن انكاره(٥)، والحال كذلك مع الدراسات

(١) رالف لنتون، دراسة الانسان، ص٧-٨٠

(٢) جوستاف لوبون، سر تقدم الامم، ص٤٠

(٣) فردريش نيتشة، هذا هو الانسان، ص٨

(٤) جان بوارسية، تاريخ العرقية، ت: نسيم نصير، منشورات عويدات، بيروت- لبنان، ط١ ١٩٧٤، ص٢٠١

(٥) كريستين نصار،الانسان والتاريخ، ص٣٣-٣٤

الانثروبولوجية التي تؤكد على ماهية ضرورة وجود التنوع والاختلاط الثقافي ما بين الشعوب، وانه على اي باحث الاخذ بذلك بهدف الوصول الى معلومات اكثر عن الانسان وكينونتها وطبيعتها، بدل الانكار والهروب من الحقيقية ذلك([1]).

اذ يعتقد لوبون ان هذه الفروقات والاختلافات مبنية وفق تصورات علمية لايمكن المساس بها،لاسيما علم النفس الحديث التي يؤكد وبصورة علمية على حقيقة الاختلاف مابين حجم الجماجم بعد التجارب العلمية التي اجريت، من اجل اثبات الفروقات تلك وعدم المساس بها، اذ ان الفارق يكمن في ان الامم الراقية يتميز بوجود جزء مسؤول عن نمو المخ، في حين تفتقر الامم الدنيا الى هذا النوع من الخاصية وهذا ما يجعل الاعتقاد السابق باطلاً والتي كان متمثلاً في كبر حجم الجماجم، لانه كما يعتقد لوبون ان الفرق بين جماجم الامم البشرية ليست بكبيرة بأستثناء الامم الدنيا([2]). يبدو ان لوبون يحاول جاهداً اثبات تأثير الاختلاط ما بين الشعوب من خلال ذكر تلك الفرق التي قد لايكون لها وجود اصلاً، اذ لو كان الامر صحيحاً كما يعتقد هو لكان الامر كارثياً عند اختلاط الشعوب ولكان خوفه في محله المتمثل بأنقراض الامم الراقية.

الا ان الكثير من الدراسات اجريت في اوربا في وقتنا الحاضر بغية معرفة حقيقة ماهية المخ والجماجم، ومع ذلك بقيت تلك الدراسات في الكثير من جوانبها ناقصة وغير معلومة رغم الجهود العلمية الكبيرة التي بذلت بهدف معرفة حقيقة الامر([3])، لاسيما مع التعقيدات التي تكتنف وتختلف من فرد لاخر قد يكون هناك جزء معين للمخ قوي وفعال عند فرد معين بينما الاجزاء الاخرى غير ذلك، هذا فضلاً عن الحجم والطاقة النامية فيها، اذ انه من الجدير بالذكر ان عملية النمو لاتتوقف على حجم الجمجمة([4]) على اساس ان الاجزاء الثلاثة المكونة للمخ لكل واحدة منها مسؤولية معينة هدفها ارتقاء

(١) حسين فهيم ، قصة الانثروبولوجيا، عالم المعرفة، العدد ٩٨، لسنة ١٩٨٦، الكويت، ص١٢٧

(٢) جوستاف لوبون، سر تقدم الامم، ص٤٠

(٣) جان بوارسية، تاريخ العرقية، ص٦١

(٤) نورمال بريل، بزوغ العقل البشري، ت: اسماعيل حقي، مكتبة نهضة مصر، القاهرة– مصر، ط١ ١٩٦٤، ص٢٨٣

القدرات العقلية والمعرفية للانسان(١) هذا مع الاخذ بعين الاعتبار ان ماهية المخ قد تتغير او تطرأ عليها تحولات وفق نوع من الانظمة المعقدة والمتشابكة اصلاً لايمكن ادراكها بصورة علمية دقيقة (٢) ومن هنا يبرز تصّور يؤكد على انه كيف يمكن لهذا النوع من التعقيدات ان تثبت بمجرد تجربة او اختبار معين وعلى مجموعة من الافراد(٣)، مع الاخذ بعين الاعتبار ان الكثير من الدراسات قد اثبتت ان الانسان هو من نوع واحد مهما اختلفت اعراقه واصوله، بحيث يرجع الجميع الى نوع واحد معروف علمياً في الوقت الحاضر بالانسان العاقل(٤).

المبحث الثالث– تكوين الامم التاريخية :

يعتقد لوبون ان المجتمعات الانسانية في العصر الحديث انما هي في حقيقة الامر زائفة وغيرحقيقية عند اخضاعها للمفهوم العلمي، ذلك بسبب ان تلك المجتمعات انما تشكلت وتكونت بتأثير الهجرات والغزوات والفتوحات التي شهدها التاريخ الحديث للبشرية، التي ادى بطبيعة الحال الى تكوين امم مركبة من الاجناس والاعراق المختلفة، اذ لا يمكن اعتباره القاعدة اوالبنية الاساسية لقيام مجتمع حقيقي بمعنى الكلمة، كما كان الحال مع السلالات الالمانية والهنغارية والسلافية وغيرهم من القوميات التي كانت منضوية تحت لواء سلطة الدولة و الحضارة النمساوية، اذ فشلت المحاولات التي بذلت من اجل بناء مجتمع حقيقي من هولاء كما تؤكد عليها الادلة التي تعود الى تلك الفترة، والحال كذلك مع الايرلندي الذي كان خاضعاً للسلطة الانكليزية، ومع ذلك فقد بقيى محافظاً على كيانه العرقي، عكس الامم والشعوب المنحطة مثل الهنود الحمر، وكذلك السكان

(١) عبد الستار ابراهيم ، الانسان وعلم النفس، عالم المعرفة، العدد ٨٦، لسنة ١٩٨٥، الكويت، ص٧٨

(٢) حسين عجمية، الاندماجية (تداخل البيئة مع الاجيال والعقل)، دار صادر، بيروت– لبنان، ط١ ٢٠٠٤، ص٧٠–٧١

(٣) كارل بوبر، عقم المذهب التاريخي، ت: عبدالحميد صبرة، مكتبة المعارف، الاسكندرية – مصر، ط١ ١٩٥٩، ص١١٤ ؛ الكيس كاريل، الانسان ذلك المجهول، ت: شفيق اسعد، منشورات مكتبة المعارف، بيروت– لبنان، د.ت، ص٦٩–٧١

(٤) هاشم يحيى الملاح، المفصل في فلسفة التاريخ، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، ط١ ٢٠٠٧، ص٢١٨

الاصليين لاستراليا الذين انصهروا عند اختلاطهم بالشعوب والامم الراقية كما تثبتها الادلة التاريخية، لاسيما عند الاخذ بعين الاعتبار ماهية وكيفية عملية الامتزاج والاندماج بين امتين وشعبين متباينين، اذ يشير لوبون الى ان الامر بحاجة الى ثلاثة شروط اساسية يكمن الاول في ان لا يكون الفرق في عدد الافراد كثيراً بين الجانبين، والثاني ان لا يكون البعد الثقافي والحضاري بينهما كبيراً، اما الثالث فيخلص في ان يكون البعد الزماني كافياً لنجاح العملية التي تحتاج الى وقت ليس بالقصير،هذا مع الاخذ بعين الاعتبارتأثير العوامل البيئة([1]).

الا انه لو نظرنا الى التاريخ والحضارات الانسانية لوجدنا العديد من الحضارات قد تشكلت على اساس المزج والاختلاط ما بين الاجناس والشعوب المختلفة، كما كان الحال مع الحضارة الاغريقية التي تميزت بوجود جماعات وسلالات واعراق متباينة اسهمت في منح تلك الحضارة قوة كبيرة من الازدهار والحيوية([2]) اذ هنالك نص (للديانة بوذية) يؤكد على انه لايمكن بناء وتكوين اي بنية حضارية راقية وحقيقية عند المجتمعات المنعزلة التي تحبذ منع الاختلاط والامتزاج مابين الشعوب، اذ ان العلاقات والروابط الانسانية هي الاساس في قيام الحضارات البشرية عند الاخذ بمبدأ التأثيرات للقيم والبنية الاجتماعية للشعوب المختلفة([3]) ويمكن ملاحظة ذلك عند دراسة التركيب السكاني لاوربا بعينها، اذ لاوجود لعنصر اوعرق نقي راقي لوحده، بل ان المجتمعات الاوربية هي في حقيقية الامر مركبة من سلالات وقوميات مختلفة، ولمختلف المراحل والعصور التاريخية، اذ لو كان الامر كما يدّعى اصحاب المدرسة العنصرية لكان ذلك اكتشافاً كبيراً في مجال العلوم الانسانية([4])

الحال كذلك مع المجتمعات الامريكية في العصر الحديث، المكونة من شعوب واجناس متنوعة حضارياً، ومع ذلك فقد استطاعوا من تكوين امة جديدة عن طريق التزاوج

(١) جوستاف لوبون، سر تقدم الامم، ٤٣-٤٤
(٢) كافين رايلي، الغرب والعالم ، ج٢، ص٨٣
(٣) مايكل كارندرس، لماذا ينفرد الانسان بالثقافة، ص١٥٥
(٤) محمد عبدالمنعم نور، اسس الاجتماع الانساني،ص٢٢-٢٣

والاختلاط فيما بينهم، اذ ان هذه الامة الحديثة منحت الانسانية الكثير من الانجازات والاكتشافات المؤثرة للحياة، وهذا دحض واضح للمفهوم العنصرية، اذ لا يمكن القول ان الامة الامريكية امة مزيفة، بل انها حية قطعت اشواطا كبيراً في مجال حقيقة امتزاج الشعوب المتباينة(١).

فيما يتعلق الامر بالادلة التاريخية التي اشار اليها لوبون بهدف اثبات صدق رؤيته، لاسيما القوميات الاوربية المنظوية تحت لواء السيادة النمساوية، فأن الدراسات التاريخية تشير الى المسألة من زاوية اخرى تماماً، اذ ان الصراع العرقي والقومي انما جاءت بفعل البعد السياسي ما بين روسيا القيصرية التي وظفت المفهوم الديني المذهبي ضد الدولة النمساوية، لاسيما تأجيج الروح السلافية التابعة للكنسية الارثوذكسية الشرقية المعادية للكنيسة الكاثوليكية الغربية(٢)،والحال كذلك مع الايرلنديين الذين رفضوا السلطة الانكليزية نظراً لمحاولاتهم الرامية الى تحويلهم المذهبي من الكاثوليكية الى الكنيسة الانكليكانية مما دفع بهم الابتعاد عن المنظومة الأنكليزية لاعتبارات دينية صرفة(٣).

ثم يؤكد لوبون على ان الوراثة لاتقهر الا بالوراثة، بمعنى اخر انه عندما يتم الاختلاط والتزاوج ما بين الشعوب الراقية والمتدنية، شريطة ان تستمر لازمان طويلة بهدف احداث التغيرات والتحولات المرجوة للصفات الخلقية الاسياسية مابين الامتين اللتين شكلتا امة جديدة على انقاضهما، وهنالك ادلة حقيقية كما يزعم لوبون على ان الامم التي رفضت الاندماج والاختلاط الوراثي بقيت قوية وفعالة من الناحية الحضارية، اذ لولا تمسك المجتمعات الاوربية بمبدء المفهوم العرقي لما استطاعت النجاة من كل تلك الجموع التي كانت تحيط بهم من كل جانب سواء كانوا زنوج او هنود او غيرهم من الاقوام في شبه القارة الهندية، اذ استمر الامر مع الانكليز كذلك في العصر الحديث الذين استطاعوا عن طريق الحفاظ على دمائهم من النجاة امام الاعداد الهائلة من الهنود، اذ يمكن القول

(١) وليم بويد، اسحاق ازيموف، الاجناس والشعوب، ص١٨٧

(٢)ا.ج.ب، تيلور، الصراع على السيادة في اوربا، المركز الثقافي العربي، ابوظبي– الامارات،ط١ ٢٠٠٩، ص٣٢٨

(٣)جفري بروان، تاريخ اوربا الحديث، ت: على المرزوقي، الاهلية للنشر والتوزيع، عمان– الاردن، ط١ ٢٠٠٦، ص٤٦

انه من الممكن ان تنهار اية امة تقافياً وحضارياً، لانه بامكانها النهوض ثانية، اما اذا انهارت اية امة من الناحية العرقية لن يكون هناك عودة ونهوض ثانية، بل تظهر امة جديدة على انقاضها([1]).

مع هذا فأن الدراسات الحديثة ترفض تلك النظريات من اساسها، اذ ان الحضارة الاوربية الغربية في وقتنا الحاضر انما هي قائمة على مساهمات وانجازات اكثر من عرق واحد بعينه، ومع ذلك فهي قوية لدرجة كبيرة، والحال كذلك مع الحضارات الاخرى التي شهدتها البشرية عبر تاريخها الطويل، كما كان الحال مع الحضارة الهيلينية التي اسهمت فيها اكثر من ثلاثة اعراق محتلفة، ان هذه التفسيرات والنظريات المختصة حول ماهية الدور الحضاري للامم و الاجناس المتباينة انما هي قي حقيقة الامر في غاية من التعقيد والغموض لايمكن لاحد التكهن بها بسهولة([2])، يمكننا القول انه لا توجد حضارة بشرية واحدة قامت على اكتاف عرق واحد، اذ لاغبار على ذلك على الاطلاق، وهذا رفض ودحض علمي واضح للذين يرون ان نقاوة الاعراق تعني حضارة راقية وهي في غير محلها علمياً واخلاقياً.

يمكن ملاحظة ذلك عند النظرالى التاريخ البشري، إذ تؤكد الدلائل على ان اية امة او شعب له القابلية والقدرة على العطاء الحضاري من حيث البدء والجوهر، الا ان المشكلة تكمن في عدم توظيف الطموح والرغبة المنغرسة في داخلهم، وهذا هو الفرق مابين الامم الراقية والمتخلفة في البعد الحضاري والثقافي([3]) مع الاخذ بعين الاعتبار مفهوم واسس القيم الحضارية اصلاً، نظراً للخلط الواضح ما بين القادة والمبدعين والمكتشفين الحقيقين الذين كانوا هم اصحاب الانجازات بمعزل عن القادة السياسين والعسكرين والفاتحين العظام اللذين تغني بهم المصادر التاريخية على انهم اصحاب تلك الانجازات

(١) جوستاف لوبون، سر تقدم الامم، ص٤٥-٤٦
(٢) توينبي، مختصر دراسة التاريخ، ج١، ص٩٢
(٣) وسام العثمان، المدخل الى الانثروبولوجيا، ص٤٠

والابداعات الانسانية([١]) هذا هو عين المشكلة والخطأ عند اصحاب المدرسة العنصرية لتفسير التاريخ، اذ ان اكثر الادلة والمشاهد التاريخية انما كانت من تلك الانواع التي تؤكد على دور العمليات العسكرية والسياسية لا اكثر.

اما الانكليز الذين اشاد بهم لوبون عند طروحاته، فأن المصادر المختصة بتاريخ هذا الشعب تؤكد على ان قيام حضارة ودولة الانكليز انما جاءت بفعل العقلانية السياسية للطبقة الارستقراطية التي تميزت بالدهاء والحكمة في الداخل مع الطبقات الاخرى التي طالما افتخرت بأن لها هذا النوع من الدهاة السياسين الذين تولوا قيادة الشعب([٢]) وكذلك ظهرت الحكمة لهولاء من الخارج، اذ ان الدولة الانكليزية اتبعت سياسة اقتصادية على اساس نقل مهارات وابداعات الامم والشعوب الى الداخل، مثال على ذلك مهارة صناعة النسيج التي نقلت من عند الهنود الذين طالما تميزوا بها الى الشعب الانكليزي، والحال مع الشعوب الافريقية ومهاراتهم كذلك([٣]).

كذلك لو نظرنا الى وقتنا الحالي فأن الشعوب الاوربية هي في مركز القيادة الحضارية فوق اكتاف العلماء والاطباء والمفكرين واساتذة الجامعات والمبدعين من ابناء الاقوام والشعوب غير الاوربية الاصلية، بل ان الارضية التي وفرتها اوربا هي السبب في ذلك وليس وفق مفهوم العرق اوالجنس كما يدعيّها اصحاب النظرية العرقية للتاريخ.

يستمر لوبون في طرح افكاره حول كيفية تكوين الامم التاريخية، اذ يصل في اخر المطاف الى القول ان معظم الشعوب والامم الاوربية انما هي في دور التكوين، وعلى جميع الباحثين والدارسين في هذا المجال معرفة هذه الحقيقية والاخذ بها بمبدأ الجدية العلمية عند دراسة التاريخ، اذ لا توجد امة تكونت وتشكلت في اوربا الغربية باستثناء الانكليز، لاسميا بعد ان ذابت جميع الاعراق التي ساهمت في تكوينها من البروتوني والسكسوني والنورمندي، إذ تكونت امة وسطية متناسقة في الصفات، بينما كانت الحالة

---

(١) ت.ا.م، جود، قصة الحضارة، ت: محمد بدران، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة– مصر، د.ت، ص١٢

(٢) حافظ عفيفي، الانجليز في بلادهم، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة– مصر، ط١ ١٩٣٥، ص٦

(٣) والتر روني،اوربا والتخلف في افريقيا، ت:احمد القصير،عالم المعرفة، العدد ١٢٣، لسنة ١٩٨٨،الكويت،ص١٣١

في فرنسا مغايرة تماماً، مع ان بعض الاقاليم قد شهدت نوعاً من التكوين الاممي الصحيح كما كانت في انكلترا، الا انه بشكل عام بقيت الاعراق والاجناس المكونه للامم الفرنسية من النورمندي والبروتوني والافرنجي في حالة من الانقسام، وهذا اثرّ في الكثير من المسائل المتعلقة بالقيم الاجتماعية من المعتقدات الدينية ومشاعرها، وكذلك الجانب السياسي المتمثل في الانقلابات والتحولات التي شهدتها اوربا، اذ لايمكن حل ذلك الا بفعل وتأثير مبدأ الزمان الذي يؤدي بطبيعة الحال الى ولادة امة فرنسية جديدة لها صفات وسطية وثابتة بعدما امتزجت روح الاعراق المكونة لها بشكل تام،الجدير بالذكر ان جميع الامم الاوربية انما هي في دور التكوين(١).

هنالك اجحاف واضح حول الامثلة التي ذكرها لوبون في ماهية تكوين الشعوب والمؤثرات فيها منها على سبيل المثال تاثير العرق في تكوين الامة الانكليزية، واهمل الكثير من المؤثرات الاخرى لاسيما انتشار التعليم ما بين ابناء الامة الانكليزية وبمختلف مراحلها، بعدما كانت هذه الميزة اي التدريس والتعليم حكراً على اغنياء الطبقة الارستقراطية فقط، لاسيما الوصول الى الجامعات التي كانت محرمة على الطبقات الاخرى وعلى وجه الخصوص الفقراء، الا ان التكاتف وتقرب الطبقات الى بعضها كان الاساس في قيام المثالية الانكليزية بعدما قدم الاغنياء الكثير من الاموال بهدف تعليم ابناء الطبقات الفقيرة والمحتاجة للمال، مع كونهم كانوا نابغين ومبدعين كثيراً(٢). هذا ما يعطي السر التي منحت الانكليز القدرة على القيام الحضاري والاستعماري معاً، عن طريق توظيف مفهوم التكاتف والتعاون الداخلي ما بين الطبقات بغض النظر عن العرق اوالمال او غيرها من المسائل.

فيما يتعلق الامر بالامة الفرنسية، فانه بأستثناء الانكليز كانوا متقدمين على باقي الشعوب الاوربية، اذ لو نظرنا الى التاريخ الفرنسي الحديث لرأينا تكوين امة فرنسية جديدة واقعية بعدما ذابت الاعراق والاجناس فيها رغم كونها كانت متباينة ومختلفة، الذين قدموا الى فرنسا بعد الغزوات والفتوحات التي تعرضت لها فرنسا في تاريخها، وقد امتزجت تلك

(١) جوستاف لوبون، سر تقدم الامم، ٤٧-٤٨

(٢) حافيظ عفيفي، الانجليز في بلادهم، ص٦

الاجناس القادمة بالعرق الفرنسي القديم وتكونت امة فرنسية واحدة بكل ما تعينه الكلمة([١]). هذا مع القول ان مشكلة فرنسا لم تكن من قبل ابناء الشعب بقدر ما كان في الجهاز السياسي والاداري للدولة التي كانت تدار من قبل النبلاء الجدد من ابناء الطبقة الوسطى التي احتكرت السلطة لصالحها([٢]).

اذ يمكن القول في نهاية البحث انه لا يمكن القبول بادعاء اية نظرية لتفسير التاريخ انه بأمكانها منح استنتاجات علمية دقيقية قائمة على اسس تجربية ومشاهد تاريخية شاملة ومحكمة للوقائع والاحداث المتميزة اصلاً بالكثير من التخمينات وقابلة للكثير من التحليلات، اذ ان الزمن كفيل على انحلال وبطلان هذه النظرية اوتلك([٣]) اذ ان الاعتقاد السائد اليوم من المنظور العلمي انه لا يمكن الوصول الى الحقيقة بتوظيف المقدرة العقلية لوحدها، لكونها وهم من الاوهام ليس الا، اذ حاولت الكثير من الافكار والنظريات تحويل وجهة نظر البشرية نحو الكثير من الفلسفات والطروحات الفكرية التي كانت اشبه ما يكون خيالية نابعة من اذهانهم وعقولهم لدراسة التاريخ([٤])لاسيما ان الحياة الانسانية في حقيقتها هي تجارب متنوعة قد تكون معقدة او متميزة بنوع من التبسيط الحياتي([٥]).

(١) نورالدين حاطوم، تاريخ الحركات القومية، ج١، دار الفكر، ط٢، ١٩٧٩، ص٤٨

(٢) نورمن هامبسن، التاريخ الاجتماعي للثورة الفرنسية، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة– مصر، ط١ ٢٠١١، ص١٦–١٧

(٣) و.هـ،وولش، مدخل لفلسفة التاريخ، ت: احمد حمدي محمود، مؤسسة سجل العرب، القاهرة– مصر، ط١ ١٩٦٢، ص١٣٩

(٤) روبرت .هـ. شاولس، التفكير المستقيم والتفكير الاعوج، ت: حسن سعيد الكرمي، عالم المعرفة، العدد٢٠ لسنة ١٩٧٩، الكويت، ص٨٤

(٥) اروين ادمان، الفنون والانسان، ت: مصطفى حبيب، القاهرة– مصر، د.ت، ص٩

الخاتمة:

في ختام هذا البحث قد توصلنا الى بعض الاستنتاجات المهمة حول هذا المفهوم الفلسفي لتفسير التاريخ والتي يمكن اجمالها على النحوالاتي:

١- لايمكن القبول بمفهوم وجود دماء واعراق نقية، لاسيما في العصر الحديث عند الحديث عن الامم والشعوب، نظراً لسرعة وكثرة الاختلاط التي حدثت ما بين الشعوب المتباينة من خلال ظاهرة التزاوج والتقارب الانساني في وقتنا الحاضر،هذا ما يؤكد عليه الكثير من الدراسات العلمية في هذا الحقل من المعرفة التاريخية.

٢- الدرجات والتقسيمات الحضارية للامم عند لوبون تنقصها الكثير من المعلومات وتشوبها الكثير من الغموض والتعقيد الفكري والفلسفي، من خلال ضعف الادلة والشواهد التاريخية، لاسيما انه جعل شعوب الشرق الاوسط في درجة شعوب شرق اسيا من الصينين واليابانين الذين يتمتعون باختلافات حضارية وثقافية متعددة لايمكن انكارها.

٣- اثبتت الكثير من الدراسات ان العوامل البيئية لاتقل تأثيراً عن العامل الوراثي ان لم يكن اقوى منه في تحديد مسار الشعوب والامم التاريخية، الادلة والشواهد التاريخية تظهر حقيقة تلك التأثيرات، اذ لا يمكن القبول بكونها ذو تأثير محدود كما يزعم لوبون.

٤- كذلك وجود نوع من الالتباس عند دراسة ماهية الشعوب والامم الاوربية التي اكد عليها لوبون في طروحاته، لاسيما ان الكثير من الدراسات العلمية التاريخية اثبتت بطلان هذه الانواع من الاراء و الافكار القائمة على العنصرية المقيتة.

٥- هذا فضلاً على ان المراحل التاريخية التي مرت بها الشعوب خلال تكوينها لم يكن تحت تأثير العامل الوراثي فقط، وانما كانت هنالك عوامل ومسببات اخرى تمثلت في الاحوال الاقتصادية والاجتماعية التي كانت بمثابة المرتكزات الاساسية لقيام امة حضارية راقية.

Allegations of ethnic interpretation of history between scientific reality and philosophical imagination Gustav Le Bon's allegations are a model

Dr.salman mohammed khader & Dr.Kaua Azeez Ibrim

Abstract

The ethnic interpretation of history played a large part in the mental field of historical studies, especially from the mid-nineteenth century until the early twentieth century. Many philosophers and thinkers who had a great influence in this field, including Professor Gustav Le Bon, Intellectual and philosophical importance of this school of interpretation of the historical movement and movement, by relying on the origin of the races of peoples and nations, as well as the psychological and civilized grades of these nations and peoples, as well as reference to the different stages experienced by the peoples for their spiritual composition And civilization, which he called the formation of historic nations.